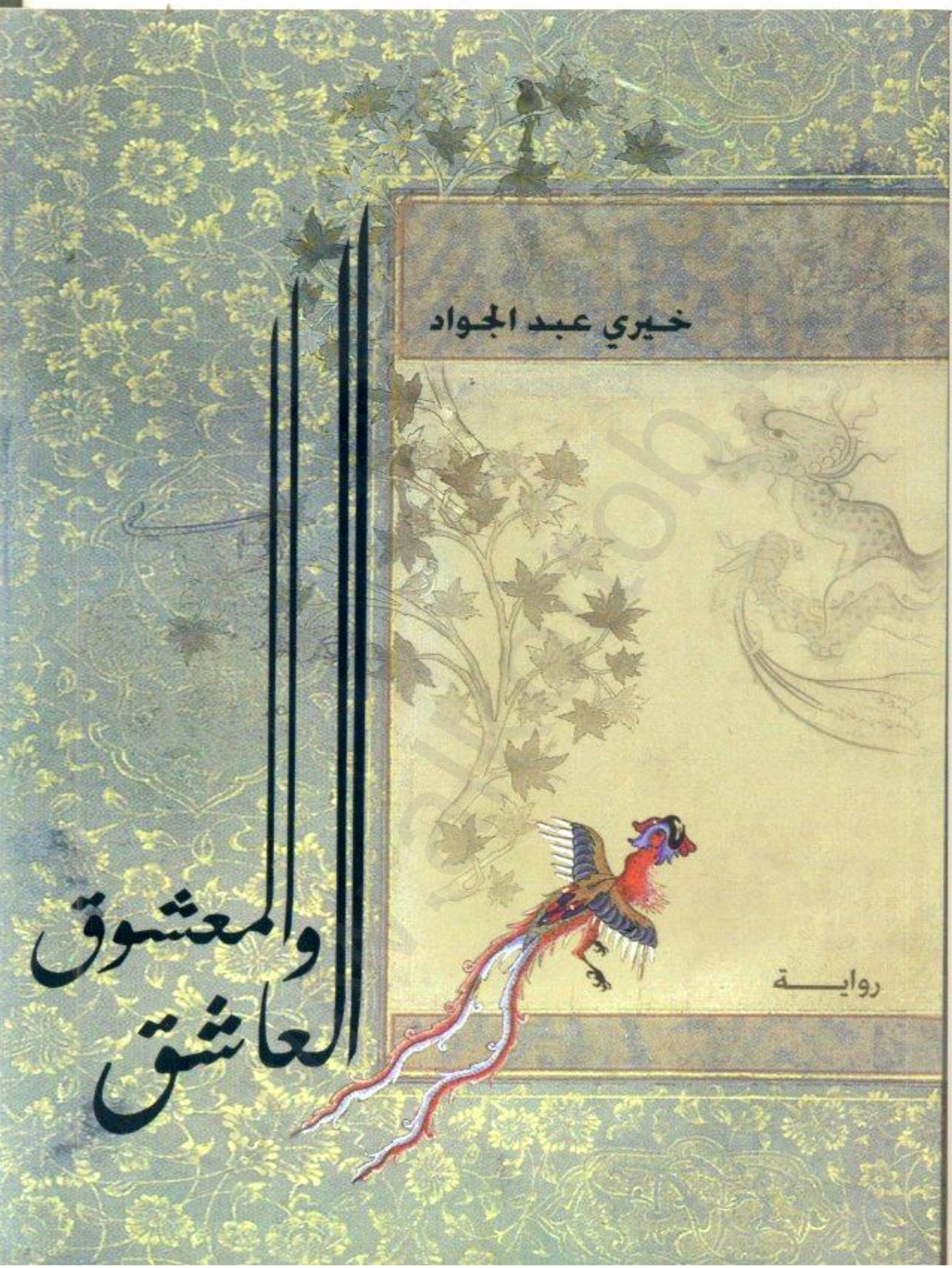

خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق
روايـــة

العاشق والمعشوق

اكتمال العشق

اختراق الحُجب!

"حدث قديمًا جدًّا، في إحدى الممالك القديمة، أن ولدت أميرة كما لم يولد مثلها من قبل، فلا أحد يشبهها، متفردة هي في كل شيء، حتى في اسميها المعلن والخفي، ما نقص شيء في الكون إلا واكتمل فيها، إنك لا تستطيع التطلع إلى هذا الجمال لأنك لن تقوى على الصمود أمامه، وما من أحد جرؤ على النظر إليها إلاّ من وراء حجب، ولا تستطيع الكلمات وصف سيدة الدنيا؛ فكيف توصف وهي الأصل والمثال، وأنت أيها العاقل الفطن، يا من تقرأ هذا القول الآن، لا تتعلق بالكلمات، فما هي إلاّ تحصيل حاصل لما قد حدث، أمَّا ما سوف يحدث فأنت وحدك صانعه، إنَّ العبرة بما بين السطور، فلتنظر إلى أبعد من تحت قدميك إن استطعت، ولتبحث عن الجوهر النفيس إن كانت نفسك ذكية، ومن الآن، سوف يصبح هذا الكتاب كتابك أنت الذي يكتب أمام عينيك، فهو منك وإليك، فانتبه!".





اسم الكتاب: العاشق والمعشوق (رواية)
المؤلف: خيري عبد الجواد
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر: الطبعة الأولى عن نهضة مصر - يناير 2009م
رقم الإيداع: 2007 / 19034
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-4086-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 33466434(02)-33472864(02) فاكس: 33462576(02) ص ب 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - السادس من أكتوبر
ت: 38330287 (02) - 38330289 (02) - فاكس: 38330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 25909827 (02) - 25908895 (02) - فاكس: 25903395 (02)

مركز خدمة العملاء: (02) 25909827
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء:
customerservice@nahdetmisr.com
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: (03) 5462090
مركز التوزيع بالمنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
ت: (050) 2221866

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

إلى فاتن...

مقدمة الطبعة الثالثة

خيري.. اللهم اغفر لنا نقادنا

بقلم / سعد القرش

ذات مساء، سألنا خيري: ماذا يفعل أبناؤنا بمكتباتنا؟

طرح السؤال، ونحن نواصل الاستعداد لسهرة في مكتبه. لم يكن بالضبط مكتبًا ولا مكتبة. من الشارع تدفع بابًا حديديًّا يفضي إلى غرفة ضيقة تضم بضعة كراسي، ومكتبة صغيرة، ومكتبًا خشبيًّا، ثم ممر به ثلاجة في مواجهة غرفة أكثر ضيقًا تتكوم فيها كتب وأتربة. تنسى صرير الباب، وتدخل فيحتويك المكان باتساعه ودفئه، كأنه خارج المدينة والبناية التي لم يلتفت إليها أحدنا، ونحن نلتقي مساء الجمعة لساعات يتخللها الأكل والشراب والكلام والشجار: هشام السلاموني، رفعت السيد علي، شوقي عبد الحميد، ومن حين لآخر سيد الوكيل ويوسف وهيب، وخالد البسام كلما حمله الشوق من البحرين إلى مصر.

سؤال خيري التلقائي، لم يكن مصدره خوف من موت، بل حزن على رصيد من كتب هي كل عزاء الكاتب، جمعها وعاش معها أوقاتًا لا يقضيها مع أهله، ولعل هذا سبب مبادرة كثير من الورثة إلى التخلص منها، وإنهاء علاقة غير مرغوب فيها مع هذا «العزول». قلت إن أولادنا سيحتفظون، على الأقل، بما كتبناه، وقليل جدًا مما كتبه غيرنا، الصداقات نادرًا ما تورث.

خيري لم يرهب الموت، وإنما حاوره طويلاً، و«توهم» أنه انتصر عليه، فإذا هو يباغته، إنهاء لمحاورات أثمرت نحو عشرة أعمال ترشحه لأن يظل الأكثر غزارة في أبناء هذا الجيل. يكاد الموت يكون الوتد الذي أقام عليه خيمة الكتابة.

قبل عشرين عامًا، قرأت مجموعته القصصية الأولى «حكايات الديب رماح»، وقد صدرت في سلسلة خصصتها هيئة الكتاب آنذاك للناشئين، وقلت له إن السلسلة ظلمتك لأنها نشرت عشرات من الأعمال الرديئة، لا تتيح لكثيرين الصبر حتى يصادفهم عمل حقيقي، جدير بالاهتمام. لم أجد في السلسلة إلا مجموعتين قصصيتين تستحقان القراءة، إحداهما «الديب رماح». كنت آنذاك طالبًا في جامعة القاهرة، أنهيت دراستي، ثم تغربت أكثر من

عام، وحين عدت لم يكن خيري قد نشر شيئًا آخر. وأتيح لي أن أكون في موضع اختبار، وبطبعي لا أميل إلى ادعاء صداقة آلهة صنعها آخرون، ولا أحاول صنع إله أطوف حوله، لأقسم بحياته وإبداعه، قدر ثقتي بأن الأصغر سني ربما يستطيع أن يأتي بما عجز عنه كبير اكتسب مكانته بالتقادم، أو التواطؤ على الصمت. اقترحت في «الأهرام المسائي» نشر قصص وروايات مسلسلة لكتاب شبان، بدلاً من أعمال لكتاب لم تعد لديهم كتابة طازجة. استشهدت، في رهاني على أعمال تجذب انتباه القارئ، برواية أولى لكاتب شاب اسمه خيري عبد الجواد.

كان قد أعطاني مخطوطة روايته الأولى «كتاب التوهمات» لقراءتها، ورأيت فيها روح منشد شعبي كان يأسرنا صغارًا بقدرته على الحكي، وقلت: لو لم يكن روائيًا، ولا يعرف الكتابة، لأصبح حكاء «ينشد» في الأسواق. يجوب البلاد، يجمع الحكايات، ثم يعيد إنتاجها، ويبهر السامعين. وجدت في التوهمات تنويعات على حكايات الموتى، وطرفًا من سيرة أمه «أمينة مرشد» التي أهدى إليها كتابه الأول، وعنها دارت معظم الحكايات. أخفيت عنه ما أسعى إليه، واعتبرت نشر فصل واحد منها انتصارًا لي وله،

فإذا بي أنجح في نشرها كاملة، في صحيفة يومية، ضمن حلقات أسبوعية، ظلت مخصصة لمن يراهم كثير من الصحفيين كبارًا. كانت دهشتي أكبر من دهشة المؤلف الذي لم يتكرر معه، ولا مع أحد من أبناء جيله، مثل هذا النشر الواسع لرواية.

صدرت رواية «كتاب التوهمات» (1992) غير كاملة، إذ اعترض بعض عمال المطبعة في هيئة الكتاب على ألفاظ وسطور رأوا فيها خروجًا على الأدب. رضخ خيري للضغوط، ووافق على الحذف والتعديل، خوفًا من تصعيد الأمر الذي ينتهي عادة برفض النشر. وحين أراد نشر الرواية كاملة، بعد سنوات، لم يجد الأصل، فعاد إلى النص الكامل الذي نشر في «الأهرام المسائي».

في الصفحة الأخيرة من التوهمات إشارة إلى أن للمؤلف، تحت الطبع، رواية عنوانها «سيرة أمينة مرشد» لم تصدر قط. وقد تحمس كثيرون للتوهمات كتجديد روائي، وإن كتب خيري شلبي في «القدس العربي» مقالاً، تبدو قسوته من عنوانه: «كتاب التوهمات.. رواية شبابية جديدة: شكل مقحم ولغة مستعارة وإفراط في الواقعية».

في الفترة التالية، راوغ خيري الموت، وقدم أشكالاً أخرى للحكي الشعبي، في قصص وروايات منها «العاشق والمعشوق» (1995) الأكثر حظًّا بين أعماله، وإن لم تأخذ حقها من الدراسة، لأسباب تخص نقاد كسالى، يحلو لهم إراحة النفس بقولبة الكتاب، فاللهم اغفر لنا نقادنا.

أهداني خيري «العاشق والمعشوق» كاتبًا: «أخي وصديقي سعد.. أتمنى أن تخرج من كسلك وتكتب».

تذكرت مفاجأته السابقة، حين أخبرني بقرب نشر مجموعتي القصصية الأولى «مرافئ للرحيل» (1993)، ثم اتصل بي يوم صدورها، وذهبت إليه في هيئة الكتاب، وتسلمت النسخ ساخنة من المطبعة، وكتبت له أول إهداء، ثم خرجت بسرعة إلى هواء كورنيش النيل، قبل الانتباه إلى الفقرة الأولى في كلمة الغلاف الأخير: «هذه المجموعة من القصص نلمح فيها غرائبية الواقع الحية، وهي ليست غرائبية مصطنعة إنما هي من لحم ونبض الحياة التي نلمحها من خلال عين طفل يحلم باجتراح المستحيل من أجل استعادة لحظة دفء ما مفتقدة، لحظة صدق عند تخوم الحلم ورؤيا الفقد والموت...». قلت له بعد ذلك: ما هذا الكلام الكبير الذي كتبته عني على الغلاف؟ قال: من

قلبي والله، لكن اسمي غير موجود عليه، وسوف تفاجأ به منشورًا ضمن مقال في «صوت العرب» (1993/7/18).

زرته عام 1997 في مستشفى الهرم، كانت معي ابنتي الكبرى «سلمى»، وقد أتمت عامها الأول، قلت له كالمعتذر: لم أفلح في الهرب منها. داعبها قائلاً: لو جئتم قبل دقائق لأدركتم «رضوى» ابنتي.. لديك جديد؟ قلت: سلمى تملأ أي فراغ، وتكفي أي أحد! ضحك، ونهض قليلاً: أقصد الكتابة يا أخي، أنا الآن مستشار دار نشر. هززت رأسي كأنني أقول: هذا ليس وقت الكلام في الكتابة. هو فهم أنني في حالة سيئة من الشعور باللاجدوى، وأهرب من الكتابة إلى الاكتئاب، فاقترح أن آتيه بما لدي من قصص. في المقابلة التالية أعطيته قصص مجموعتي الثانية (والأخيرة؟) «شجرة الخلد» (1998).

آخر ما نشر لخيري قصة قصيرة في الأهرام عنوانها «أمينة مرشد»، كان فرحًا بها، وقد تزامن النشر مع عيد الأم، ولم أسأله عن رواية «سيرة أمينة مرشد» التي وعد بها، كنت أرجح أن بعض المشاعر، والعلاقات، تمثل للمبدع عبئًا، كأنها دين عليه الوفاء به، حتى لو كانت أضيق من فضاء الإبداع، ولهذا قلت له يومًا: لماذا لا تتخلص من

حكايات الموت، وسير الموتى التي تتناسل في تشابه لا يضيف أحيانًا أي جديد، وربما يوحي للبعض بأن المشروع انتهى، أو يوشك؟

قال: سوف أفاجئك، سأكتب رواية عن جدي، جدي عبد النبي!

ثم أعطاني قصة عنوانها «عبد النبي أبو راضي». كانت مختلفة عن عالمه الذي يتوقعه القارئ والناقد. فرحت بها، ونشرتها في مجلة «سطور» (إبريل 2002)، على أمل أن أورطه في استكمال كتابة فصول رواية تعيد إنتاج سيرة رجل استطاع الحفيد (خيري) أن يخلص أيامه من شوائب الحياة ونثرها، في رحلة، أو مساحة إنسانية تمتد من كوم الضبع بمحافظة المنوفية، إلى العريش، وبولاق الدكرور، على خلفية أجواء الخامس من يونيو 1967.

لكن خيري قال: جدي عبد النبي أبو راضي غضبان جدًا من الفصل المنشور، ظننته سيفرح، ولا أريده أن يغضب في شيخوخته.

قلت له ضاحكًا: هو غضب من المنشور، ولن يقرأ المكتوب، اكتب يا خيري. يبدو لي أن جدك أنقذك!

- من إيه؟

قلت إنه ساعدك على الهرب، والتخفف من عبء الكتابة، وأنت تواطأت معه.

- ولو زعل من جديد؟

قلت: عندما تنتهي، سيكون قد مات، أو رضي عنك.

بدا كأنه يائس من الكتابة، هو الذي بدأ شهادته قائلاً: «هذا زمن القابض فيه على حكاياته كالقابض على الجمر». كانت الشهادة جزءًا من محور نقدي عنوانه «المتخيل السردي عند خيري عبد الجواد» نظمه مختبر السرديات بالمغرب، في ديسمبر 2006، بمبادرة من شعيب حليفي. خيري أرسل الشهادة، وقرئت على شاطئ الأطلسي. كرموه واحتفوا به في غيابه، وفي مصر قتلناه في حضوره؛ فرغم مرور عامين على صدور روايته الأخيرة «كيد النسا»، لم يلتفت إليها أحد. هشام السلاموني كتب عنها دراسة، وأرسلها إلى مطبوعة يديرها صديق قديم لخيري، ولم تنشر إلى الآن.

لبنان، مثل المغرب، كان بردًا وسلامًا على خيري؛ فالدكتور جورج جحا انتبه، بحس الشاعر، إلى «كيد النسا»، وكتب دراسة نشرت في رويترز في مارس 2006، ونقلتها صحف ومواقع إلكترونية كثيرة. قلت لخيري: هذه الدراسة تكفيك. كدت أقول إن كثيرين لا يرضون بأقل من موت الكاتب ليكون جديرًا بالاهتمام، فاللهم اغفر لنا نقادنا خطايانا، ومجد سير موتانا الأحياء.

لا يكتمل العشق إلاَّ إذا
قال العاشق للمعشوق:
يا أنا.

«السَّرِيُّ السَّقَطي»

حكاية الأميرة وكيف تم عشقها

على الوصف وما جرى بعد ذلك

من غريب الكلام وأمور العشق والغرام

كان هذا العنوان هو أول ما تبدى لي من صفحة الغلاف الأحمر الباهت المتآكل مكتوبًا بخط منمنم جميل، أحسست بخفق مَنْ هو مُقبل على جَلَل، كيف لا وأنا أبحث عن هذا المخطوط منذ مدَّة، لم أعرف صاحب محل لبيع الكتب إلاّ وسألت عنه، ولم أسمع عن سوق إلاّ وذهبت إليه، جُلتُ في الأسواق كلها أبحث وأتقصى، علَّني أعثر على خبره، أو أجد من يبل ريقي، يطمئنني، يقول لي إن هذا المصنف رآه ذات مرة أو سمع عنه، أو أنه مخزون عند أحد الورَّاقين، إنما كان سؤالي يواجَه بإنكارٍ شديد، ونفي لا يُورث الشكَّ في أن هذا المخطوط له وجوده الفعلي. ورغم ذلك، كان إحساسي بوجوده يزداد كلما زاد الإنكار له، وأنني سوف أجده، وأنه في انتظاري، يترقبني مثلما أترقبه، يبحث عني مثلما أبحث عنه، يتشوق لرؤيتي ويقفو خطوي، يترصدني أينما حللت ويعد عليَّ أنفاسي، يحاصرني، إذا

اقتربت شبرًا من أحد أماكنه الخفية اقترب مني ذراعًا، وكلما مشيت شوطًا قاصدًا السعي عبر أحد أزمنته المخبأة في بطون المدونات، أجده أتاني هرولة معلنًا عن أحد تجلياته لي، إشارة يخصني بها، وهذا ما شجعني على استكمال رحلة بحثي عنه، وفي يقيني أنني واجده مهما طال البحث، مهما نأتِ المسافات بيني وبينه، مهما ضللت من باعة الكتب، وتجار المخطوطات الذين ما إن أقترب من أحدهم، وما إن أنتهي من إلقاء سؤالي عليه، حتى ينظر إليَّ نظرة مَن يتحقق من ألا يكون بي مس، ثم يهز رأسه نافيًا ومشيحًا عني، هل كانوا صادقين في نفيهم وجوده؟

قرأت عنه في المدونات القديمة، لم يوجد بعد مَن لم يتحدث عنه ويقتبس من متونه، رغم إجماع بأن أحدًا لم يره رؤية عين. فكيف سَرى بينهم كالأثير دون أن يرى؟ وكيف أصبح له هذا الوجود الكثيف؟ يرجعون إلى متونه المنثورة في بطون المدونات بروايات مختلفة ومعان متفق عليها، لا خلاف فى الجوهر، كأنه أزلي، إحدى الروايات تقول إنه ظهر مع بداية الخَلق، وإنه يظهر مع بداية كل قرن، وكما يظهر يختفي فجأة كأن لم يوجد من قبل، أحد الرحالة كتب رسالة في كيفية عثوره عليه في إحدى جولاته في أقطاب الدنيا الأربعة، أسماها: «القول المبسوط في الرد على من أنكر بوجود المخطوط». الرحالة حكايته متداولة في المدونات، إصابته بالسقم بعد الانتهاء من رسالته،

رجوعه من رحلته محمولاً، حيرة علماء زمنه التي لازمته حتى فارق، اختفاء المخطوط والرسالة بعد موته.

وقيل إن أحد ملوك حِمْيَرَ العظام عثر على بعض النثارات، وضعها في خزائنه، أقام عليها حراسة مشددة، لكنه توجس من اختفائها، بنى مدينة قيل إنها إرم ذات العماد نفسها، بنيت خصيصًا لها، لا أحد غيره يدخلها، أفرد لها قاعة صنعت أبوابها من الذهب الخالص المرصع بالجوهر، أقام على باب المدينة رَصَدًا يخبر بقدوم غريب على مسافة ثلاثة أيام، ترك أمور الملك والحكم وانشغل بقراءتها، أَنْسَتْهُ جواريه اللاتي قيل إن عددهن تجاوز أيام السنة الكبيسة، وإن أقلهن جمالاً تشبه القمر في ليلة تمامه، حبس نفسه داخل القاعة، حراسه اطلعوا على أحواله الغامضة، أخذوا يتسللون حتى اقتربوا من محل مُكْثِهِ، أيقنوا أن مسًّا أصابه، يتحدث دائمًا إلى امرأة لا أحد غيره يراها، خافوا من تَسَرُّب أحد دون علمهم، بحثوا ونقبوا دون جدوى، لكن ما يرونه ويسمعونه يَزيدهم يقينًا بوجود امرأة معه، يسمعون في الليل أصوات ممارسة العشق، كتموا الأمر حتى دخلوا عليه ذات صباح وكان قد فارق الحياة نائمًا على جنبه اليمين ممسكًا قلبه بيده، بحثوا عن نثارات المخطوط، لكنها كانت اختفت، أين ذهبت؟ لا أحد يعلم.

قيل إنه صُنِعَ بالحكمة وعلوم الأقلام، صفحاته صنعت من سم قاتل، يتسلل إلى الدم بمجرد النظَر إلى الكلام المكتوب بماء الزعفران

مخلوطًا بالسم المستخلص من حيوان نادر الوجودِ لا يجلب إلاّ من إقليم غير معروف بالهند، لا يعرف ترياقه إلا صانعه، ما اطّلعَ عليه أحد وصَلُح للحياة مرّة أخرى، هكذا ملأت أخبَاره المدونات القديمة، ما أُشيعَ عنه جعله شؤمًا على مقتنيه، ظهوره فجأة في بداية كل قرن علامة على فَقد وإرهاصٍ باختفاء. ما يحويه المخطوط ما زال مبهمًا رغم مرورِ قرون على وجوده، لم يمهل أحد المطلعين عليه بالحديث عنه، رواية نتفٍ من متونه، شذرات من فيضه وألطافه، لمح من نوادره وحكاياته. قيل إن به خصيصة اختُصّ بها وحده، لم تُوجد في كتاب غيره، بدايته مثل منتصفه، نهايته كذلك، التجدد باستمرار صفته الملازمة له، كذا قدرته على ألا ينتهي رغم صغر حجمه، ظاهره ينبئ كباطنه، المخفي منه أكثر من المعلن، والمعلن منه هامشي، لا ينبئ، يُغري بالضلال عن غاياته، الدخول إلى فخاخ مسالكه الوهمية، ذلك هو سره.

يقع المخطوط في تسع وأربعين ورقة من حجم الثُّمن، مَسْطَرتُها سبعة أسطر في كل ورقة، وسبع كلمات في كل سطر. للرقم سبعة دلالات شتى في هذا المخطوط، يكوّن كل مفرداته، أفرد له بعض المؤرخين مصنفاتٍ تحسبُ كل ما يحمل الرقم بدءًا من عدد صفحاته الذي هو حاصل ضرب سبعة فَي سبعة، وانتهاءً بما يستدعيه الرقم في الذاكرة، سمي عند البعض بكتاب السبعة، البعض الآخر استخلص موضوع

المخطوط من خلال الرقم، ساق حُجَجًا وبراهين تدلل على صحة ما ذهب إليه، استدعى قصة الخلق التي حدثت كما جاءت في المدونات القديمة في سبعة أيام، أُطلقَ عليه كتاب الدهر.

أحد كتاب الحكايات حكي قصة قال إن هي إلا قصة المخطوط، عن ملكٍ كان لا ينجب سوى فتيات، وقد أنجب منهن سبعًا، وله أخ لا ينجب سوى ذكور أنجب هو أيضًا سبعة، وكان أخو الملك صاحب الذكور يعاير أخاه الملك كلما رآه، أطلق عليه لقبًا عُرفَ به: صاحب السبع تَرْحَات، وكان فخورًا ومزهوًّا بإنجابه السبعة ذكور حتى ولو لم يكن ملكًا كأخيه، اغتم الملك جدًّا حتى أنه زهد في ملكه، فتياته رأين ذلك ففكرّن ودَبّرن، أعلنّ على الملأ تحديهنّ لأولاد عمهن الذكور، وأنهن سوف يثبتن بالدليل العملي فضل الإناث على الذكور، تجهزن بسفنهنّ وبدأت رحلة التحدي، خلفهُنّ انطَلَقت سفن أبناء عمهنّ، أربع عشرة سفينة غادرت المملكة في رحلة الأهوال، خاضوا في البحار السبعة وغزوا المدن السبع صاحبة الحصون المنيعة، استغرقت الرحلة سبعة أيام، وقوع الأمراء السبعة الذكور في أسر حيوان المينود ذي الرءوس السبعة، تخليص بنات عمهم لهم بعد تغلبهن على المينود وقتله، عودة الفتيات منتصرات في اليوم السابع من تاريخ إبحارهن، سرور الملك بهن وإقامة التعاليق والزينات سبعة أيام في أنحاء المملكة.

هناك أسماء أخرى إذا ذُكِرَت فتعنيه هو تحديدًا، منها كتاب الأزَل، ومنها كتاب الزمن، والكتاب الحي من ضمن أسمائه أيضًا.

أحد المعماريين أفرد كتابًا عن فن العمارة كما جاء في المخطوط، أضاف ملحقًا مزوَّدا بالرسوم التوضيحية والخرائط، قال إن المخطوط يستخدم معمارًا معقدًا عُرفَ في حضارات سابقة بادَت، وإن به لمسات من فنون أخرى غير العمارة، وإنه بني على هيئة متاهة هائلة يُفضي بعضها إلى بعض، لا يوجد فَناء، بل ديمومة مستمرة بلا نهاية، قال إن ذلك يظهر واضحًا في أشكال المدن والشوارع والحارات والأزقة والعطفات والمنحينات والأقبية وتداخل الأشكال في بعضها البعض، استخدام فنّ التعاشيق القديم، وإن العاشق والمعشوق هو قانون بنائه، فلا توجد فراغات، بل توالد دائم بلا انقطاع، قال إنه لا يدري أيهما وجد أولاً: المدن التي شُيِّدَت كما في المخطوط، وبالتالي فالمخطوط هو وصف لهذه المدن، أم أن المخطوط هو الذي أنشِئَت على غراره المدن؟

العنوان المنقوش على الغلاف مضلل، لا يُفصحُ عما بداخله، كأحد السراديب الوهمية التي حفرها الفراعنه لتضليل من يبحث عن الكنز. القراءة الأولى للعنوان تستدعي إحدى المدونات الشهيرة «ألف ليلة وليلة»، مما جعل البعض يُصنّفه ضمن كتب الحكايات، وهناك عدة مقالات تعقد المقارنة بين المصنفين، فكرة لا نهائية الزمن

وتحدّي الفناء، الصفحة الأولى بعد الغلاف عليها نفس العنوان الموجود على الغلاف مكتوبًا بالخط الثُّلُث المُشْكل على هيئة هرم مقلوب، على جانبي الصفحة هوامش وتعليقات بألوان باهتة وخطوط مختلفة، بعض التعليقات عليها أسماء أصحابها، البعض الآخر غير مُذيّل بإمضاء، في صدر الصفحة وتحت العنوان تعليق بخط مضطرب أغلب الظن أنه كُتِب على عُجَالة، ريشتُه رفيعة وحبرُه أحمر: قتلني هذا الكتاب اللعين. لا يوجَد تحته إمضاء، تعليق آخر خطُّه أقرب إلى الأول، لكن لونه أسود مغبر: تورّطت ولا سبيل إلى الرجوع، فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله. في الجهة الشمال من الصفحة كتب أحدهم نصيحة وضع تحتها خطين: لا تتقدَّمْ حتى لا تندم حيث لا ينفع الندم التوقيع كُتِبَ على شكل طُرَّةٍ: المقتول بحُبكم.

أصابتني رجفة وأنا أنقّل عينيَّ بين الهوامش والتعليقات المختلفة، هناك إجماع على خطورة الدنُو، ما يوجدُ بداخله ما زال سرًّا، لم يُهلْ أحدُ قرائه للبوح عما قرأه، كأنهم دخلوا سكة لا رجوع منها، فلا إشارة تنير الحُلْكَة، بل حديث مبهم عن مجهول لابدّ أن أعرفه أنا وحدي، اعتراني خوفُ خوضِ التجربة الأولى وأنا أقلّب صفحاته بين أصابعي، بينما أخذت دقات قلبي تعلو علوا كبيرًا:

حَدَثَ قديمًا جدًّا، في إحدى الممالك القديمة الواقعة في قلب الأرضِ القديمة المباركة من الرب إله كُلِّ

شيء، أن وُلِدَتْ أميرةٌ كما لَم يُولَد مثلُها مِن قبل وَمن بَعدُ، فلا أحَدٌ يشبهُها، متفردةٌ هي في كُلّ شيء، حتى في اسميها المعلن والخفي، ما نَقَص شيء في الكون إلا واكتمل فيها، إنكَ لا تستطيعُ التطلعَ إلى هذا الجمال؛ لأنكَ لَن تَقْوَى على الصُمُودِ أمامَهُ، ومَامِن أحَدٍ جَرُؤَ على النظَرِ إليها إلاَ مِن وراء حُجُب، ولا تستطيع الكلماتُ وصفَ سيدة الدُنيا، فالكَلماتُ تجسيدٌ لما هُو مَوجودٌ، أما هي، فلا يُوجَدَ مثلُها شيء، فَكيفَ توصَف وهي الأَصلُ والمثالُ، وأنتَ أَيُها العاقِلُ الفطِن، يَامَن تقرأ هَذا القَولَ الآنَ لا تَتعلق بالكلماتِ، فالكَلماتُ ما هي إلاَ تحصيلُ حاصلٍ لما قد حَدثَ، أمّا مَا سَوفَ يَحدُثُ فأنتَ وَحْدَكَ صانعه، إن العبرةَ بما بين السُطورِ، فما خَفي منها كانَ عَظيمًا، وهو المُرْتجى والمرَادُ، فلتنْظُر إلى أبعَد مِن تحت قدَمَيْك إن اسْتطعْتَ ـ وأنتَ عليه لقَادر ـ ولتَبْحثْ عن الجوهَرَ النفيس إن كَانَت نَفْسُكَ ذكيةً، ومِن الآنَ سَوف يُصبحُ هذا الكتابُ، كتابَكَ أنت الذي يُكْتَبُ أَمَامَ عَينيكَ، فَهو مِنكَ وإليكَ فانتبِهْ.

وَضَعت المخطوط بجانبي وقد تملكتني دهشةٌ مما قرأتُ، فلا شيء ينبئ بخطورة، إن هي إلا حكاية يوجد ما هو أفضل منها في كتب الحكايات، فما الخطورة إذن في هذا الاستهلال العادي؟ وما الذي يمكن أن تُخبئه الكلماتُ المعلنة؟ السرُّ الذي ما عرفه أحدٌ إلا وفارق، هل يكمُن في تلك المخلوقة الفريدة والتي أطلق عليها اسمُ الأميرة؟ وهل توجدُ مَن هي بمثل هذه الأوصاف التامّة بين البشر؟ هو لم يذكر أنها إنسية، فهل تكون غير ذلك؟

كان عليّ أن أُقرر الآنَ ما إن كنت سأستمر في القراءة حتى النهاية، أم أفضها سيرة وأُريحُ نفسي من التوتّر غير المُبرر، ربما كانَ كل ذلك مجرد مزَاح ثقيل، كذبة أتفق عليها الجميع على مدار الأزمنة، هل هذا ممكن؟ ربما لن أخسر شيئًا إذا أكملت ما تبقّى، فقد يَطلعُ ظني في غير محله، وربما كانت هناك إشارات خفّية لم أتبينها بعدُ، شفرةٌ خاصة به وحده ليس أمامي سوى حلها، معرفة مفاتيحها، ربما.

الأميرةُ الجميلةُ سَمعَ عَنها الجميعُ فطمِعُوا في امتلاكها، سيدةُ نساء العالمين تألمت كثيرًا مِن أجل ذلكَ هي التي أرادَتْ أن تَحيا حُرةً تَسبَحُ في بحر عُذْرِيَتها الأبدية، لماذا لا يتركونها تُشرقُ كُلّ صباحٍ مُجلَلة ببِهائها الخاصّ، دَعُوا فَيْضَ أُنوثتها يغمر الجميع بقبَس نوراني لا يغيضُ أبدَ الدَهْرِ، هَا هي

تبث شكواها الآن، تعلنُ عن نفسها بحضورها
الأخّاذ، تتكلّمُ بلسانها هي دونَ وَساطَةَ أحدٍ،
وتُحدثُ حَديثَ الأممِ الغابرة، تروي أساطيرَ
الأولينَ، هي التي رأت كلَّ شيء وسمعت ما لم
تَسْمعْهُ أذُن قط، فمها المزوَّد بالتعاويذ يَنْطقُ الآنَ:
سرّي ما عَرفه سِوَاكِ ونجا من مِحْنَة معرفته، نعم
يا مَن تقرأُ الآنَ، افهَمْ ما أقولُ، فها أنا أقَدّمُ لكَ
نفسي، لكن اسمي لا أعرفهُ، لم أعد أتذكره، تلكَ
هي مُصيبتي، أنت فقط مَن يَستطيعُ البحثَ عنهُ
والعثور عليه، بحثتُ عنكَ كثيرًا حتى وَجدْتُك،
كنتُ أنتظرُكَ، وضعتُ في طريقكَ كُلّ إشاراتي
لتستدل عَلَي. لنلتقي أنا وأنتَ وَحْدَنا، لأبثَّ لكَ
سرّي الذي لا يعرفه أحد، لقد دبّ في جسدي
الفناءُ لما فقدتُ اسمي، أنا التي عشتُ منَ السنين
أكثر مما تَتخيَّلُ، إن جَسَدي يتلاشى الآنَ وروحي
تنطفئ وقد اخترتُكَ لي، لتلُمَّ أشلائي وَتُعيد لي
اسمي، فأنا موعودَةٌ لك، وأنتَ لِي مثلما أنا لكَ،
باسمي سَوفَ أَهبكَ نفسي، أمنحُكَ كنوزي التي لم
أعطها أحدًا سوَاكَ، فهلَ أنت فارسي المُرْتقب، هلَ

تقدرُ علَى حَمْلِ أمَانتي لكَ؟، إن رَأيتَ في نفسكَ
ذلكَ عِدْني ليَطْمئِنَ قلبي.

هل ما حَدَث لي الآن قد حَدث بالفعل؟ أم أن إدماني النظر في
الكُتُب القديمة أصابني بالخبل كما كان يقول أبي كلما دخل علي
حجرتي فوجدني عاكفًا عليها؟ وهل كان صوتي هذا الذي سمعته
يتردد في فضاء الحجرة؟ أم هي تخيلاتي التي تلازمني دومًا. لقد
سمعتُ نفسي أصرخ بصوت عالٍ: أعدك أيتها الأميرة فاطمئني.
لكن ما حَدَث بعد ذلك كانَ أعجبَ، فقد رأيت ماءً ساخنًا يقطر مِن
بين السطور والكلمات فزعتُ وقد أصابني خوفٌ على إتلافِ
المخطوط، بسرعة مسحتُ القطرات الطافرة بقطعة قماش نظيفة. لست
نائمًا حتى يكون ما حدث أمامي حلم. كان أقربُ التفاسير أن يدي
القابضة على المخطوط تندَّت بالعَرق. ربما كان هذا التفسير هو الأقرب
إلي العقل، لكن شيئًا ما غامضًا شدَّني الآن بقوة إلي حفنة الأوراق
التي في يدي، ربما في تلك اللغة ذات النبرة الآمرة بإشاراتها الملغزَة،
وربما كان الترقُّب في استعجال ما سوف تسفر عنه الصفحات الباقية،
إن عالمي قد بدأ يتلاشى كُلّما توغلتُ في القراءة، لقد بدأ شيء ما
خفيٌّ وساحر يَشدُّني إلى هناك، ربما وإلى الأبد..

الآنَ اطمأن قلبي، كنتُ علَى ثقة مِن أنك رَجُلي
الذي أبْحَث عَنهُ، وأنكَ سوف تعدني بتنفيذ تلكَ

المهمة الصعبَة لقد امتدت يَدُكَ الحانية لتمسح دموعي المتساقطة، فكم أنتَ لطيفٌ. هل لازلتَ في شَكٍّ مِن أنكَ أنتَ الذي أتَوَجَّه إليه بهذه الكَلماتِ الآنَ. فاعلَمْ أيها العزيزُ أن المخطوط هُو: أنا.. وأنتَ.. الآنَ فَقطْ.

إن ما يحدُث أمامِي لا يستطيع عاقلٌ تصديقه، فكلُّ ما أُفكر فيه أجده مكتوبًا أمامي، حتى حَيْرتي وأسئلتي، أفكاري التي تُولَدُ توًّا، وتلك التي لم أفكر فيها بعد: هل سمعت الأميرةُ صيحتي وأنا أعدُهَا بالبحث عن اسمها؟ وهل كان الماء المتساقط بينَ سطور المخطوط دموعها حقًّا؟ كيف يتلاشى فجأة الحدُّ الفاصل بين عالمين مختلفين؟ أيكون هذا هو سر المخطوط بدأ يعلن عن نفسه؟ وكيف أعرف معرفة لا لَبْسَ فيها أن هذا الكلام مُوَجَّهٌ لي تحديدًا، يقصدُني دون غيري؟ ولماذا أنا من دُون الخلق؟ لقد بدأ المخطوط يُصبحُ مُرعبًا حقًّا، فَكُلُّ مَا جَاء بخاطري قرأتُهُ مكتوبًا أمامي.

أَلَم تفهمْ بَعدُ؟ ألا زِلتَ في شَكٍّ مِن أمري؟ أليسَ هَذا هو اسمُكَ؟

انتفضْتُ بحركةٍ مفاجئة فوقعَ المخطوط من يدي، فقد قرأت اسمي مكتوبًا ما من شك في هذا، كان الاسم رباعيًّا، لا أحد غيري يحمل

هذا الاسمَ، كأن المخطوط تعمَّدَ كتابته هكذا حتى لا يحدث التباس، أمسكتهُ مرة ثانية فانفتحَ على اسمي الذي أخذتُ أحملق فيه، فالذي لا يعرفه أحد، أنه كان اسمي المخفي.

كيف عرفت الأميرة هذا الاسم!
انظر إلى السطور التالية تعرف إجابة سؤالك

كانت حكايتي كلُّها أمامي الآن، ما أعرفه وما لا أعرفه، رأيت نفسي وقد انكشفَ سجلي، ما حدث بيني وبين نفسي، وبيني وبين الآخرين، أسراري التي لم أُطلعْ عليها أحدًا، مكامني وجوارحي، إشاراتي، همهماتي، عاداتي، أوقات سعدي ونحسي، ما يظهر على ملامحي من أسى مبهم لا أعرف مصدره، شروداتي وشطحاتي، ما كان مجرد أفكار عابرة، ما هممت بفعله ولم أفعله، أحلامي التي ما تحققت، انكساراتي وهزائمي، دموعُ فرَّت، ولَوْعَة على فراقِ أحبَّه، رائحة يوم جمعة صباحًا حيث اللَّمة بين الأب والأم والإخوة على إفطار.

انظُرْ إليَّ!

التمت السطور وتكومَت وأخذت ترسمُ ظلالاً وأشكالاً، وللمحة خاطفة رأيتها، كانت تنظر لي، وشعرتُ ببهر شعاعِ عينيها، وشيء ينبثق داخلي، وكأن غَمرًا من نورٍ يَغمر قلبي، وأخذتْ روحي

تنسحِب مني وتروح إليها، وسمعت صوتًا ليس كمِثله صوت، كان هسيسًا له نَبْرُ موسيقى مُوَقَّعًا على أنغامٍ كونية كامنةٍ لم تُسمَعْ مِن قبلُ:

الآن عرفتني فلا حُجُب بيننا، ما استطاع غيرُكَ النظر إليَّ وسَلِمَ، فأنا كُل مَا كانَ، ويكونُ، وسَيكونُ، ومَا مِن بشرٍ فانٍ رَفَعَ عني ردائي بعدُ، ومن الآنَ، فلا سبيل إلى التراجُع، فاذهبْ إلى شيخِ الجَبل، فهو ينتظرك وهوَ دليلك في رحلةِ التيهِ.

شَعَرتُ بشفتينِ رطبتين تُحطانِ على شفتيّ تمسهما مسًّا لينًا حتى ذُبت من رقتهما، وعذوبة طعمهما استقرَّت في قلبي، وغمرني عطرٌ فوّاحٌ سوف أحمل رائحته أينما حللتُ، فكأنها امتزجَت بنسيجي، أستحضرها كلما شعرتُ بوَحشةٍ في دُلْجة، أو حنين إليها في وحدة هي التي ليس كمثلها امرأة بين نساء الدنيا، لقد نظرَت إليَّ نظرة واحدة فقط فما عاد القلب لسيرته الأولى، وما استمر خفوقه إلا لها وبها، ولم تعد لي غاية في العيشِ إلا بقصد الاجتماع بها، التزود بشذا عطرها، أرنو إلى وجهها مرّة أخرى ولعَلّي أفارق بعدَها فلا يهُمّ.

في مَسْعاكَ حَيَاةٌ لي ولَكَ فلتَبدأ بالهجرةِ صَوْبي، لملِم اسْمي فأحْيا مِن جدِيد.

من أين تجيئني القدرة على الرحيلِ صوبَ مجهولٍ يتجهمني وأنا الذي استقرّ نور محبتك في القلب فأوْهنه، اختصّني بآيةٍ تشُدّ حَيْلي، تُقوني وتُقوتني، تُعينني على المشاق.

آيتك عندي أن أمنحَكَ وَجهي لتراني فيمَن تُقابلُهُ، أَمنحَكَ سَمْعي وبَصري فتسمَعُ بأذني وتَرى بعيني، يقتربُ سرّي من سرّكَ وأكونُ في مَسْرَى دمَائك، أن يكتملِ العَشقُ ويكون الواحدُ منا هوُ العاشَق والمعشوقَ فتقولُ لي وأقولُ لكَ يا أنَا، والآنَ أُطلِعكَ على سرائري وأَقُودُكَ عَبْرَ دهاليزي، لتدخُلَ إلى متَاهتي، أقص عليك قصة كُلُّ شَيءٍ، أحكي لكَ حكايةً لا تنتهي حتى تبدأ من مكانٍ آخر لا يعرفُه سوَاي، كانَ يا ما كانَ، وكانَ كأَنْ لَم يَكنْ، هَكذا تبدأُ كلُّ الحكايات، وهَكذا أنتَ تكْونُ في قلبِ الحكاية.

كم مرَّ عليَّ من زمن وأنا جالس مادًّا رقبتي محملقًا في المخطوط، سطوره لا تكاد تنتهي حتى تبدأ بداية أخرى، حكاية تبدأ، تلدُ حكاية

وحكايات، خيوطًا تمتد وتتشعَّبُ كعناكبَ عملاقة تمدّ حبائلها فتحتوي الزمان والمكان، الماضي والحاضر، ما حَدَثَ وما سوفَ يحدث، حيوانات وطيور ونباتات وبَشَر، أقبية وممرات وسراديب ومدائن، متاهة هائلة لا يخرج منها إلاَّ مَن عصم، أزمنة مُوغلة ومُوحشة، وأخرى آنيةٌ ليسَ بيني وبينها إلا مسافة طرْفة عين، حَيوات وأعمار مَرّتَ كأن لم تكن من قبلُ، صيرورةٌ دائمة وأبد لا ينتهي، وأنا الذي كُشفَ عني غطائي الآن أشعر بالتبدل والتحول من حال إلى حال، فما عدتُ كما كنتُ قبل جلوسي بين يَدَي المخطوط، فكأني أنشأ مرّة أخرى من جديد، وكأني كلّ ما كانَ ويكون وسيكونُ، ها هو سريري أراه وقد نَبَتَ له جناحان طائرًا بي في سماء الحجرة صاعدًا إلى الجو الأعلى، وأرى الدنيا من تحتي كأجمل ما تكون الطير الذى أعرف لَغوَهُ يلتم مِن حولي، النجومُ تتدلّى لتدنوُ مني فُتنير طريقي، وينشق القمر إلى نصفين، نصف لي، ونصفٌ لها، أنغام كونية مجلجلة تزفني وتزفها، وهي التي توحّدت بالزرقة الشاهقة ترنو إلى من ذابَ قلبه عشقًا من قطعَ أسباب وجوده ليصل إليها، يربط حباله بحبالها، إنه أنا يا سيدةَ نساء جِنسكِ فهل تسمعين ندائي، وهل تنظرين عروجي نحوَكِ.

هل تدرك الآنَ لمَ اخترتكَ؟ لأنكَ مِثلي، وأنتَ مني مثلما أنا منكَ، وأنتَ الحاملُ حكاياتِ زمنه القابض عليها قبضةُ على الجمرِ، هل تدركُ المعنى

من حكاياتكَ التي حملتها على ظهرك؟ أينما كنتَ سوفَ أحيا مرة أخرى، فامضِ الآنَ، واجعَلْ دليلَكَ قلبَكَ الخافقَ بالحكايات، استحضرها كلما شعرتَ بوَحْشة طريقِكَ، تمثلها إذا أحلكتك الليالي، فَسَوْف تجدني في كلّ الحكايات، فأنا في قلبكَ، وأنا جوهَرُكَ فلا تُضيّعْني، وابدأ رحلتكَ وحَذَار أن تنسَى مَا سَوف أمليه عليك من وَصَاياي: لا تكذب، فكَذبكَ يقتُلُني، أخلص لمحبّكَ يُخلصْ لكَ ويجعلكَ سَيدًا في قلبهِ. لا تخُنْ مَن آمنكَ على مَاله وعرْضِه فخيانتكَ تقتُلني. وقتكَ سَيْفٌ إن لم تَقْطعْهُ قطعَكَ فخُذ مِن وقتِ لهوكَ كما تأخذ لجدّكَ كلٌّ بمقدار، الآن أكملت لك وصاياي، واطمأنَّ قلبي على مَن اختارَهُ فلك مِني السلام حتى تلقاني.

هل كنتُ موقنًا من اختفاء المخطوط في لحظة كما ظهر؟ وهل كان هذا سبب عُكوفي على قراءته مرّة ومرّة ومرات حتى أحفظه في قلبي، إشاراته، كلماته الظاهرة، وتلك التي تومئ دون تصريح، موقع هذه الجملة من السطر، وموقع السطر من الصفحة، وموقع الصفحة من النص كله، تبدلاته في كل قراءة أقرأُها، حكايته التي لا تنتهي، ما كان

يُكتَب منه أمامي، رؤاي وأفكاري واستفساراتي. فهل كان اختفاؤه ضروريًا؟ هل هي علامة بأفول زمني؟ أتراهُ سوف يظهر في زمن آخر لغيري؟ أم أنها العلامة لبداية سعيي صوبها، حِجى إليها تَلَمُّسُ طرقها ومسالكها، الدخول في متاهتها؟

تذكرتُ مَن قرأوا المخطوط قبلي وفارقوا، كيف جاءهم الموت؟ هل كان حالهم مثلي؟ هل أصابتهم صدمة ضياعه بالسكتة؟ هل استيقظ أحدهم بعد سبع ليالٍ من السهر مع صاحبة المخطوط دون إغماضة جَفن، دون أخذ نَفس، أو التَّصبُّر ببضْعِ لُقيمات وجَرْعَة ماء تحفظ من العَطَبِ ليفيقوا على اختفَائه مثلما حَدَثَ معي؟ هل أحسوا بالخواء بعد ضياع عوالم ومدن وبشر وسماوات وأرض؟ هل بدأوا سعيهم صوبها أم مكثوا في أماكنهم حتى أتاهم المفرّق الذي لا يرحم، من هُو متربِّص بالمصائرِ، فسُبحان الحي الذي لا يموت صاحب المُلك والملكوت.

❀ ❀ ❀

حكاية شيخ الجبل والتابوت والإخوة الثلاثة وكيف فرقت بينهم تصاريف الزمان

شيخ الجبل

كم من الوقت مضى، وأنا أجرّ جسدي جرًّا، صاعدًا هابطًا في طريق لا رجعة منها، أتقدم صوبه بوهن يشدّهُ ويوهّجه حنين لرؤياه، اقتراب جَمْعِ شملي بمحبوبي، من وقعَ في أَسْرِ لحظها نبضُ قلبي، مَن أصبحَت أنفاسي وقْفًا عليها، ورغم يقيني أنها المرّة الأولى لي في هذا المكان إلا أن الطريق أعرفها جيدًا، فكأني قطعتها آلاف المرات، لا دهشة مما أراه حولي، ربما عشتُ كل ذلك في زمن آخر، التفاصيل الدقيقة لكل شيء، منذ أن انشق الحائط المواجه لسريري لحظة كنتُ أفكّر في طريقة الوصول إليه، الممر المظلم الضيق الذي وجهي خلفه، سيري الحثيث صوب الظلام الناصع، نزولي درجات السلم الذي بدا أن لا نهاية له، فهل نزلت إلى قرار الأرض السابعة؟ وقوفي في قبو متسع تتفرع منه عدة ممرات، فأي الممرات أسلكها؟ أيها يؤدي إلى ما أبحث عنه؟ اختياري أولها، كان طويلاً مظلمًا وضيقًا، هل للزمن وجود هنا؟

هل يوجد ليل أو نهار؟ وإلامَ يُفضي؟ كلما توغلتُ بدا بلا مدى، حتى أوشكت على يأسٍ لم يخرجني منه إلا ظهور ممر آخر أكثر اتساعًا من سابقه، أسلمني بدوره إلى ممر وممر وممرات. متاهة هائلة أفضَت بي إلى القبو الذي بدأ سعيي منه، تلفت بحثًا عن طرق أخرى أُيَمِّم وجهي شَطرَها فما وجدتُ، هل فاجأتني لحظة حُبُوطٍ فرجعتُ لحظتها أبحث عن مخرج مما أنا فيه، بحثي عن حائط حُجرتي المشقوق، ولُوجي منه مرّة ثانية واللواذ بحجرتي بين كتبي، وأفضُّها سيرة ويا دار ما دخلك شر، هل وجدتُ هذا الحائط؟ أم أنه لم يكن موجودًا أبدًا! فلأبدأ بداية أخرى، نجاتي من المتاهة وخروجي إلى الأرض البراح، صعودي الجبل الشاهق، معرفتي بمساربه وطرقه الوعرة، مواقع قدمي المحفورة على الصخور الضخمة قبل مجيئي، ترقبي لعلامات أعرفها جيدًا، شجرة سوف تظهر هناك بعد انحناءة طريق وحيدة متوحدة، خضراء يانعة، من أين يجيئها الماء؟ وكيف خرجت من بين صخرتين؟ شقٌّ في منتصف الجبل سوف يخرج منه ثعبان يترصدني فاتحًا فمه ليبتلعني، ألقي عليه تعزيمة الرفاعية وأن حدّ الله بيني وبينك فلا تؤذني ولا أوذيكَ فَيجدّف بجناحيه طائرًا في الهواء، بعض الماء الآسن وقد حفر لنفسه مجرى بين أخدودين، وشِقٌّ عميق أعلى الجبل يُفضي إلى مغارة هي هدفي ومقصدي، هل قرأت عَن كل ذلك في المخطوط؟ هل أوحَت إليَّ أميرتي بطرق عبوري إليها؟

من بعيد بدا لي الشق لا يكاد يبين، لمّا اقتربت أظهر لي نفسه، يتسع لشخص واحد نحيف، علَى قدر قامتي كان ارتفاعه، ولجت منه فخُضت في ظلمة، ارتجفتُ ودخلتُ في بعضي وأنا أتحسس بأصابعي الجدار الصخري الرخو حين انطلق في وجهي صارخًا وطار بعيدًا، إلى أن انتهيت لممر آخر أكثر اتساعًا، كان الضوء الواهي المنبعث من نهايته إشارتي للتقدم صوبه، أخذت أتقدم حتى انتهى الممر فرأيت نفسي في قاعة فسيحة، غشيني ضوء غامر ومفاجئ، أغمضت عينيّ وفتحتهما عدّة مرّات حتى اعتادتا عليه.

حين ذاك لمحته، كان جالسًا في منتصف القاعة على الأرض، وبدا أنه لم يشعرِ بوجودي، خلفه، لمحت تابوتًا يسبح في هالة من الضوء، وقفتُ مدّة قبل أن أرى اختلاجة رموشه، كان وجهه نحاسيًّا، بينما لحيته استلقت على صدره بطراوة كرحًى عملاقة، شَعْرُ رأسه الأبيض المصفرّ منطرحٌ على كتفيه وخلف ظهره متماوجًا ومتشبكًا مع لحيته، بينما جلبابه الأبيض الناصع الموشّى انحسر قليلاً عن ساقيه الضامرتين، تغضنات وجهه تنبئ بأزمنة مرّت، وآماد قضيت، طال مُكْثي أمامه حتى مرّت ساعة ترقرق فيها قلبي حتى سال من هيبته، مَن هو؟ مَن منا يعرف الآخر؟ وهل هو مَن كان سعيي صوبه؟ وكيف أبدأ في الفيض، شرح سبب وقوفي بين يديه، شكايتي من طرق وعرة مشيتها، دخولي في المتاهة، وخشيتي من الضياع لولا ستر ربي.

هل سمعت صوته بعد اكتمال الوقفة أمامه؟ هل قال لي اجلس فجلست متأدبًا في خشوع ومتربعًا بين يديه على الأرض مطرقًا، أم أنني جلستُ هكذا دون أن يأذن لي دون إشارة منه؟ فلا شيء يدل على بقائه حيًا سوى صعود صدره وهبوطه، اهتزاز شَعْرِ لحيته ورأسه كُلّما أخذ نفسًا وردّه، هل كُنتُ منتَبِهًا لما فتح عينيه، عيناه رماديتان واسعتان حولهما بياض غامق مُشربٌ بصُفرة، بينما الشعيرات الدموية الدقيقة المحمرة بدت كشرنقة. حرّكَ شفتيه بتمتمةٍ خافتةٍ ثم أخذ صوته يعلو واضحًا ورائقًا: جئتَ أخيرًا. سكتَ وغابَ عني مدّة ساعة حتى ظننت أنه فارق. أفاق وتنبه لما حوله مرّة أخرى، أشار بيده إلى التابوت الذي خلفه: قُمْ يا ولدي وخُذ نصيبكَ من الدنيا، ما تجده فهو حظك الذي قُسم لكَ.

قمتُ متحاملاً على نفسي من شدة هزالي وضعفي، فالعشق أورثني العلة والسقم، لما اقتربت من التابوت غشيني فيض من نوره فأغمضت عينيّ دون أن أقدر على فتحهما من شدة الوهج المنبعث منه، وما عدتُ أعرف أوله من آخره، كأنه يسبح في لجة من النور الخالص، فتحت عينيّ مرّة ثانية فأبصرت معالمه وتحققتها جيدًا؛ تابوتًا من النحاس الأصفر اللامع، عليه تصاوير لطيور مغردة، وأخرى مُحلّقة. وسباعٍ ضارية تكاد تنطق وتتحرك من دقة الصنعة، أبصرتُ موضع القفل الذي ما إن لمسته حتى انفتح في يدي، تأملت كتابة عليه فإذا

هي اسمي محفورًا، أزحت غطاء التابوت ونظرت فإذا بتابوت اخر ادق صنعة من الأول، تحسسته فسرت نعومته في جسدي، كان من الفضة الرائقة، فلما أزحت غطاءه وجدت تابوتًا ثالثًا كاد بريقه يُذهبُ بصري، كان من الذهب الإبريسم المشغول، عليه منمنمة تمثل تصويرة لفَتاة فائقة في الحسن والجمال واقفة منتصبة القوام ترنو إلى قلبها الذي يرفرف بين يديها وهو على هيئة طائر العنقاء يخترقه سهم طائش، والفتاة تتلفت باحثة عمن رشق قلبها بسَهمه، بينما الطائر يحاول التحليق في مقاومة يائسة. أزحت الغطاء الذهبي وأنا أظن أنه لا نهاية لتلك التوابيت فإذا بي أجد علبة من حجر الألماس، بداخلها مكحلة من ياقوتة حمراء مرودها عِرْقُ زبرجد أخضر، ما إنْ أمسكتها بين أصابعي حتى سمعت صوته الآمر: هات ما وجدتَ واحضرْ عندي.

حملتها بين أصابعي ووقفت بين يدي الشيخ الذي أشار لي بالجلوس أمامه، ثم إنه مدّ يده أخذ المكحلة وظل يقلبها أمام عينيه كمن يراها للمرّة الأولى، ثم إنه ابتسم وقال: افتَحْ عينيكَ.

أمسك رأس المرود بأصابعه وأدار اللولب فانفصلَ عن المكحلة وقد عَلقَ به بعض رمادٍ أسود له رائحَة نفاذة، أمال رأسي ناحيته وأخذ يُمرّر المرود بين جفوني ثم أمرني بغلقهما مدّة ساعة ففعلت، كان السكون المكتمل يحيطني، وغمرتني سكينة، فرُحتُ في غفوة فرأيت فيما يرى النائم وكأني أجلس على قمة جبل عالٍ بوادٍ غير ذي زرع، وإذا

بوحش هائل الحجم يجيء إلى ناحيتي ويلتهمني، وينزل الوحش من على الجبل فيلمحه وحش آخر أكبر حجمًا فيلتهمه، ويحط طائر عملاق على الوحش فيأخذه بين مخالبه ويطير به إلى طبقات الجو العليا، ثم يتركه فجأة وسط لجة من الماء فيغرق الوحش ويأكله السمك ويجيء صياد فينشر شبكته في الماء فيصطاد السمك ويبيعه فيأكله الناس ويقضون حاجاتهم في مكان خالٍ، فتنبت شجرة، ويأتي طائر يبني عشه في أعلى الشجرة، ويجيء حطّابٌ ويأخذ في قطع الشجرة ويبيع خشبها لنجار يقوم بعمل توابيت، و..........

انتبهت على صوت الشيخ يأمرني بفتح عينيّ، مسحت على وجهى براحة يدي حتى أفقت وفتحت عيني فرأيت الأميرة أمامي مكللة بجمالها الذي لا يعرف النقصان، ورنت إليّ صامتة واشتعل بريق عينيها كشهاب خاطف يعرف طريقه إلى قلبي الذي انتفض طائرًا وتركني مغشيًا عليّ.

لما تنبهت، شعرت بدوخة وغرقت في بحر عرَقي وأنا أحملق فيما حولي مذهولاً فخاف الشيخ عليّ مما أنا فيه وصار يبلل شفتيّ بالماء ويلقمني في فمي سائلاً مُقوّتا حتى رجع إليَّ وعيي، أخذ الشيخ يربّت على جبيني ويواسيني قائلاً: أنا أعلم يا ولدي أنك رأيتها، وهذه درجة لم يفز بها سواك من الأحياء، فقد نمى إلى علمي أنه ما من أحدٍ رآها إلاَّ وهلكَ من شدّة هذا التجلّي.

هززتُ رأسى أسى وحسرة وقد اختنق صوتي بالعبرات وقلت أحدّث نفسي: وما الذي في وسعي فعله، وقد أصبحت عديم النفع لا أقدر على القيام من نومتي هذه، ولابد أنني ملاقٍ حتفي أنا أيضًا. قال الشيخ: لا تتعجَّلْ يا ولدي، واللي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين، فكل شيء بأوان، وإلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً وتستردّ قوتك وتستطيع السير، دعني أقصّ عليكَ قصتي وهي عبرةٌ من العِبر تُكتبُ بالإبَر على مآقي البَصَر. لم ينتظر الشيخ ردي عليه، وسرحَ ببصره في البعيد، وأخذ يتنهد ويقول: أنا وأنتم نُصلّي على طه الرسول.

* * *

حكاية شيخ الجبل مع بائع الكلام

حدّث الشيخ فقال: اعلم يا ولدي أننا كنا إخوة ثلاثة، وكان والدنا شيخًا طاعنًا، وكانت لنا تجارة عظيمة وهو المقدَّم على تجار المدينة، فلما انقضى أجله، اقتسمتُ أنا وأخواي ما تركه لنا من تجارة وأموال فجاءت كثيرة، أما أخواي وهما أكبر مني، فقد اشتغلا بالتجارة كوالدنا ففتح الله عليهما وبارك لهما فيها، وكنت من صغَري لا أُحبّ هذه المهنة لما بها من أرقام وحسابات ومناهدة مع الزباين، وقد أصابتني لوثة البحث وإدمان النظر في الكتب القديمة، فعثرت ذات مرة على أحد هذه الكتب يتحدث عن مخطوط نادر الوجود، فلما فرغت من قراءته تعلق قلبي بهذا المخطوط وصرتُ أتقلّى على الجمر من أجل وقوعه في يدي، ولكن كيف أحصل عليه وأنا لا أعرف أين أجده، ولا السكك المؤدية إليه. إلى أن كنت نائمًا ذات يوم، فإذا بهاتفٍ يجيئني وأنا أسمع صوته ولا أرى صورته ويهتف قائلاً:

قُم أيها الغافلُ اللاهي لتبحَثَ عنها، فهي اختارتكَ وأنتَ أحد الموعودينَ بها. فهَلُمَّ إليها تَجدْها في انتظاركَ، سيدةُ نساء العالمين تُقرئك السلام وتقولُ لك: ابْدأ رحلتكَ صوْبَ المخطوط من هُنا حتى تَصلَ إلى الجبالِ التي تُحيط بِالدُّنيا كما يُحيطُ السوادُ بالبيَاض، أو النيل بالبِلاد.

فلما أفقتُ من نومي، حدّثني قلبي بأن هذه الرؤيا صحيحة، فذهبتُ إلى أخويّ وفاتحتهما في أمر رحيلي، فأخذا يحايلاني حتى أبقى معهما وأنا لا أستمع لكلامهما، فلما يئسا من الحديث معي تركاني أفعل ما يحلو لي فبِعتُ لهما نصيبي، وجمعتُ مَالي وقسّمته ثلاثة أكوام، وجعلت كل كومة في صُرَّة، وأخذتُ معي مخلاة بها بعض الزاد والماء، واتكلتُ على الحيّ الذى لا يموت، وخرجتُ من البيت بعد أن تودّعتُ منهما، واتخذتُ وجهتي جهة المشرق وظللت سائرًا حتى تركت حدود العمار وأنا أجتهد في مشيي قاطعًا صحاري ومفازات ليس بها صرّيخ ابن يومين، إلى أن نفد الزاد والماء فأوشكتُ على التلف ويئستُ من حالي، وحدّثتُ نفسي حديث الندم الذي لا ينفع، وكيف أنني تركت بيتي وأهلي وتجارتي وجريت وراء الهاتف. وبينما أنا كذلك وقد انقطع رجائي في النجاة مما أنا فيه، إذ لمحت عن بعد سورًا عظيمًا ينبئ عن وجود مدينة، فلم أُصدّق نفسي وقلتُ لقد صور لي خيالي حبلاً للنجاة، إن هي إلا تهاويم خيال، ولكنني دققت النظر فتحققت مما رأيت، عند ذلك رجع رجائي في الدنيا مرّة أخرى وقويت

عزيمتي وتقدمت وأنا في الرمق الأخير حتى وصلت عند السور، بحثت عن الباب فوجدته مغلقًا ولا يوجد خارجه أي إنسان والسور عالٍ لا يستطيع تسلقه أحد، رجع إليّ اليأس من جديد وأخذت أتلفت حولي فأبصرت حجرًا بجانب السور جلست عليه ونطقت الشهادتين وبكيت نفسي وترحّمت عليها. وفي تلك اللحظة سمعت صوتًا ينادي على بضاعة فكدت أكذب أذني، ولكني أبصرت شيخًا كبيرًا بلحية بيضاء تكاد تخفي وجهه جالسًا على حجر بجانب السور من الناحية الأخرى من الباب، لم أكن رأيته من قبلُ، جريت ناحيته وأنا غير مصدق، حتى وصلت إليه فوقعت تحت قدميه مغشيًا عليّ.

لما أفقتُ فتحتُ عينيّ فوجدته بجانبي يمسح شفتيّ المتشقّقتَين بخرقة مبللة بالماء حتى دَبّت فيهما الطراوة، ثم بعد ذلك قربّ إناء الماء من شفتيّ فأخذته بيدي في لهفةٍ وشربتُ حتى ارتويت، ثم مدّ لي يده بتمرة وضعتها في حلقي فأحسست الشبع، وبعد أن هدأتُ سألته عن هذه المدينة وبابها المغلق.

فقال: إن بابها يُفتحُ ساعة واحدة فقط في الليل أو في النهار دون ميعاد، وإن أهلها يعرفون ذلك، وقد أغلقَ بابها قبلَ أن آتي بقليل، أما المدينة فهي كبيرة عامرة بالأسواق والناس والدوَاب. لم أجد ما أفعله سوى انتظار فتح الباب بجانب الشيخ، وانعقد بيننا الحديث فسألته عن سرّ جلوسه خارج المدينة، وما الذي يفعله في هذا القفر وهو الشيخُ الطاعن. فنظر إليّ وتنهد

وقال: إن لي حكاية فهل تسمعها؟ قلت: حبًّا وكرامة. فترك الحجر وجلس على الأرض فاردًا ساقيه واتّكأ بكوعه على الحجر وقال:

اعلم أن والدي كان من الملوك الأكابر، وكانت مملكته تُسمى بمملكة الجزائر السبع لأن بها سبع جُزر لاتغربُ عنها الشمس من اتساعها وعظمة أرضها، ولم يكن سعيدًا رغم ذلك لأنه لم يُنجب وَلَدًا يرثُ كل هذا الملك، وكان قد وعد زوجته الملكة ألاّ يتزوج عليها مهما حدث، واستطاع أن يَبرّ بقَسَمه فلم يفكر في الزواج على الرغم من جواريه اللاتي يَمْتلئ القصرُ بهنّ، وقد تقدّم به العمر فأصبح مهمومًا بالليل وبالنهار ولا يفكر في شيء إلا هذا الوَلَد الذى يجيء من صُلبه ليرثَ ملكه. وفي يوم من ذات الأيام، بينما الملك نائم إذ جاءه هاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه وقال له: أيها الملك، عليك بذبح خروف وديك روميّ، وأرسِلهما مع جاريتين إلى شاطئ البحر، وقل لإحداهما أن تضعَ الخروف في صينية على الشاطئ، والأخرى تضع الديك في قارب تجده هناك، ودعهما تهتفان باسمي أنا عليّ ملك البحر.

أفاق الملك من نومه وهو في عَجَبٍ من تلك الرؤيا التي رآها وما سمعه من الهاتف فقال: أَفعَلُ ما أمرني به فلَعَلّها تكونُ رؤيا صادقة. ثم إنه صاح على الطباخين وأمرهم بذبح خروفٍ وديكٍ روميّ من أحسن ما يجدونه في الحظائر الملكية وأوصى الجاريتين بما تفعلانه إذا وصلتا إلى شاطئ البحر. فوضعت الجارية الأولى الخروف المشوي في

الصينية وتركتها على الشط، بينما وضعت الأخرى الديك المحمر في القارب، ثم إنهما هتفتا في نَفَس واحد: اطلع يا عليّ يا ملك البحر، الملك أرسلَ طلبَكَ. وبينما هما واقفتان تنتظران، رأتا الخروف والديك اختفيا وسط الأمواج التي عَلَت وارتفعتْ فجأة، ثم هدأ كلُّ شيء ورجعَ كما كان، ووجدتا مكان الديك والخروف رمانة وتفاحة، وسمعتا صوتًا آتيًا من أعماق البحر يقول لهما: خذا هديتي إلى الملك وقولا له: علي ملك البحر يرسل إليك السلام ويقول لك خذ الرمانة وأعط زوجتك التفاحة، أما الرمانة فكلها أنتَ كلها، ودعها تأكل التُّفاحة، وبعدَ ذلك تُسمِّي اسمَ الله وتُطلقُ مدفعكَ فتهدمُ القلعة، وسوف تُرزَقُ ولدًا يصبح أخي نصفه لكَ ونصفه لي.

فعلَ الملك ما أمر به عليّ ملك البحر ومرّت الأيام والليالي حتى اكتملت تسعة شهور فجاءته البشارة بأن الملكة أنجبت وليًّا للعهد وهو أنا، وفرحَتْ كل الجزائر لي وبما وهبني الله من الصحة والجمال، وصرت لا أطلب شيئًا إلا وجدته أمامي حتى كبرت سريعًا وقد تعلمتُ آداب الملوك على أيدي المعلمين والمؤدبين والسباحة والرماية وركوب الخيل على أيدي أصاحبها حتى فُقْتُ أقراني ومعلّميّ.

وفي أحد الأيام، وكنت أتمشى على الشاطئ أنا وابن وزير أبي، فأغراني الماء بالنزول، وما إن وضعتُ قدمي في الماء حتى رأيت الموج يرتفع ويبتلعني داخله أفقتُ فرأيتُ نفسي داخل قصر أجمل من كل القصور

التي رأيتها من قبلُ، جدرانه معمولة من حوائط شفافة تظهر ما يحيط بها من ماء وأسماك وأصداف وكل ما يوجد في البحر، فأخذت أتجوّل داخله وأنا مبهورٌ من كثرة ما أشاهده من عجائب، وفجأة ظهر أمامي شاب وسيمٌ عليه بهاء الملوك لا أدري من أين جاء، وتقدم مني فاردًا ذراعيه واحتضنني وقال: حمدًا لله على سلامتِكَ، أنا أخوكَ عليٌّ ملك البحر فلا تخَف مني، وأنا اتفقتُ قبلَ مولدكَ أن تعيشَ نصفَ عُمركَ مع أهلك، والنصف الآخر معي، ثم إنه أخرج من جيبه حلقة ملأنة بالمفاتيح وقال: خُذ، هذه أربعون مفتاحًا بعدد حجرات القصر، كلّ ما فيها ملكٌ لك، افتح كل الحجرات إلا الحجرة رقم أربعين حتى لا تندم. ثم إنه تركني واختفى من أمامي، ورنّت كلماته في أذنيّ ولا أعرف ما الذي شدّني إلى الحجرة التي رقمها أربعون وقد حذّرني من فتحها، وحدّثتني نفسي أن أبدأ بها، فلما فتحت الباب، وجدت حجرة خالية ليس فيها إلا حامل من الخشب وضع في منتصف الحجرة، والحامل عليه كتاب قديم له جلدة كالحة متآكلة، وأخذت الكتاب في يدي وجعلت أتصفحه وليتني ما فعلت. فما إن بدأت أقرأ حتى نسيتُ نفسي وما حولي وشيء ما جذبني إلى أعلى فأفقتُ فوجدتُ ما حولي صحراء جرداء، ما الذي قرأته في الكتاب؟ لم أعد أتذكر، ثلاث كلمات فقط هي كل ما أذكر، ووجدتني أرددها على لساني، واصلت الليل بالنهار سيرًا على قدميّ بحثًا عن مملكة أبي، فوصلت إلى مدينة بعد أن كادت روحي تطلع، وأخذت أسأل كل

مَن أقابله فيهزّ رأسه ويمضي مبتعدًا عني، ولمحت شيخًا طاعنًا يجلس على باب دكان فتوجهت إليه ووقفت أمامه، فقام إليّ، أخذني من يدي وأجلسني بجانبه، وأمر بإحضار الطعام والشراب فأكلنا أنا وهو، ثم بعد ذلك سألته: هل تعرف يا والدي مدينة كذا؟ فضحك الشيخ ونظر إلى وجهي يتأملني وقال: إنكَ أنت الوالد والجد وما أنا إلا كأحد أحفادك، أخبرني أيها السيد الجليل ما هي حكايتك؟ ومن أين أتيتَ؟

فقصصت عليه كل ما حدثَ لي، فلما انتهيت هزّ رأسه متعجبًا وقال: إن حكايتك غريبة، والأغرب منها أنك عشتَ كل هذه السنوات، فإن هذه المدينة التي تذكرها سمعتُ أخبارها مِن جَدّي والد أبي لمّا كنت صغيرًا، وأنها بادَت منذ زمن طويل ولا يوجد من الأحياء مَن رآها لكن أخبارها متداولة. ثم إنه قام وأحضر مرآة وقال: انظر إلى نفسك، فقرّبتها من وجهي فرأيتُ ما هالني، فقد شابَ شَعري وتشابكت لحيتي وتهدّلت ملامحي، وأدركتُ لماذا قال الشيخ ما قاله في الأول، فما الذي حدث لي طوال هذه السنين؟ ولماذا لم أعد أتذكر سوى هذه الكلمات الثلاث؟ هذا هو اللغز الذي لا أعرف له إجابة، وقد أخذت عهدًا على نفسي ألا أنطق بها إلا لمن يدفع ثمنًا مساويًا لما دفعته فيها.

قال الشيخ إنه يجلس على باب المدينة منذ عشرين سنة في انتظار من يَفدُ عليها، وأنتَ أول الوافدين، وإن تجارته لا سوق لها داخل هذه المدينة لذلك فقد جَلَسَ على بابها.

قلت: هلاّ أعطيتني واحدة من كلماتك الثلاث، فلَعَلّي أجد فيها ما ينفعُ ويُعين على الطريق، وقد استبدَّت بي رغبة جامحة في معرفة هذا الكلام الذي أضاع عمره بسببه، وهل يكون الكتاب الذي قرأه هو نفس ما أبحث عنه؟ هز الشيخ رأسه في جد: ادفَع أولاً وأنا أعطيكَ على قدر مالك. أخرجت من هدومي صرةً من الصرَرِ الثلاث فأخذها في كفه وصار يزنها ثم وضعها في عبّه وقالَ: إليك بواحدة «من أمنكْ لم تخُونه ولو كُنت خَاين». قالها الشيخُ وَسَكَتَ، وكنت أظن أنه سَوف يحدثني حديثًا متصلا يأتي فيه على ذكر العجائب والغرائب التي مرّ بها، فلما طال سكوته قلت: أكمل يا شيخ. رد عليّ بحزم قلت: ما عندي على قدر فلوسك. ولكني أعرف هذه الجملة فما الجديد.. قال: هل جرّبتها؟ أدركتُ أن لا فائدة من النقاش معه، وكان التعب قد حل عليّ فرُحْتُ في غفوةٍ صحوت بعدها فوجدت الشيخ جالسًا بجانبي فسألته عن الباب وهل اقترب ميعاد فتحه. فأجابني بأنه فتح مرّة وأنا نائم، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله فقد غلبني النوم فضاع يومي الأول ولا بد أن أكون يقظانًا عندما يُفتَحُ في الغد، وشَعَرتُ بجوع، وكأن الشيخ أحسّ بي فمدّ يده بتمرةٍ أكلتها وتجرّعتُ بعض الماء فسكن ألم الجوع، وتذكرتُ ما دار بيننا من حديثٍ قبلَ نومي فقلتُ أصل ما انقطع منه: أعطني كلمة أخرى، فرد قائلاً: ادفع ثمنها. أخرجتُ صُرةً أخرى فأخذها وأطرق قليلاً ثم قال: «حبيبك اللي تحبه ولو كان عبد نُوحي». وفعل كما المرّة

السابقة، فقد سكت عن الكلام، وصار ينظر إلى الصحراء الممتدة أمامنا، بينما أخذتُ أتأمل فيما أنا فيه وما صارت إليه حالي، وتذكرتُ أخويّ فسالت دموعي، والشيخ لا ينظر إليّ ولا يشعر بي حتى هدأتُ وسرحتُ بنظري في الفضاء فغلبني النوم على أمري. لمّا صحوتُ فَركتُ عينيّ وتلفّت حولي فرأيت الشيخ مازال جالسًا فسألته: ألم يُفتح الباب بعد؟ فقال: بلى، فُتحَ ست مرات وأنتَ نائم. تعجبتُ وقلت كيف يُفتَح ست مرات في اليوم الواحد، بل في ساعة واحدة هي مقدار ما نمته. فقال: لا تعجب فإنك نمتَ ستة أيام بلياليها. ثم إنه ناولني تمرة أكلتها وشربت. وصرتُ أضرب كفا بكف مما يحدثُ، كيف أنام ستة أيام متصلة دون أن أشعر بما حولي؛ وهل كان الشيخ بجانبي طوال هذه المدّة دون أن يغفو أو يبرح مكانه؟ وبينما أنا أتفكّر وأطرح الأسئلة على نفسي، إذ به ينظر إليّ قائلاً: اطلع بالصرة الثالثة لأعطيكَ كلمتي الأخيرة. زادت دهشتي وقلت: كيف عرفت أن معي صرة ثالثة؟ لم يرد. أيقنتُ أنه قام بتقليبي أثناء نومي، تحسّستُ هدومي فوجدت الصرة مكانها. اطمأنت نفسي بعض الشيء، فقد كان بوسعه سرقتها والاختفاء بها داخل المدينة أثناء نومي الطويل فلا أعرف له طريق جرّة مددتُ يدي بها فأخذها وقال: «ساعة الحظ ما تتْعَوّضْشِ». هذه هي كلمتي الأخيرة. قلت: أعطني كلمة زيادة من عندك، فقد نفدَ مالي ولا يوجد ما أدفعه لك وأنا أحببت كلامك هذا الذي أعرفه وأحفظ منه الكثير. نظر الشيخ إليّ غاضبًا:

إنك تعرفه ولكنك لم تجربه، هلاّ جربته لتعرف فائدته، فأنا دفعتُ عمري ثمنًا له، وأنت دفعتَ كل ما تملك فنصبح أنا وأنت متساويين، بقي أن تنتفع بما ملكتَ وإلا فسوف تندم كما ندمت.

لقد بدأت بالفعل أشعر بالندم والحسرة على ضياع مالي في كلام أعرفه وأعرف أكثر منه، وأنا لن آكل أو أشرب كلامًا. قمت أمشي قدمي وقد استقرّ عزمي على أمر سوف أفعله مع هذا الشيخ الذي خدعني. فكرتُ أن أظل يقظًا أرقبه حتى ينام فآخذ فلوسي منه وأرجع من حيث أتيتُ. رجعتُ وجلستُ بجانبه ساهمًا أتدبّر أمري، ولكنه فاجأني بقوله: لا تفعل وتذكّر الكلمة الأولى. تذكرتُ كلامه فدهشت، هل عرف الشيخ ما كنتُ أفكر فيه؟ لابد إذن من الحذر مع هذا الرجل فلا شك أنه ساحر، فكيف أفعل شيئًا دون تفكير؟ وإذا فكرتُ فسوف يعرف! أخذت أصْرِفُ عقلي عن التفكير في أية تدابير تجاهه حتى لا يعرف، ورأيته ينظر لي مبتسمًا، كانت المرّة الأولى التي أرى ابتسامته، لابد إذن أنه قرأ أفكاري للمرّة الثانية، فقد سمعته يقول: لا يذهبن بكَ الخيال بعيدًا، ما حدث كان مقدرًا ومكتوبًا لابد من حدوثه، ثم ارتفع صوته مناديًا في الخلاء: يا طالب الحِكَم طلبك عندي، معي كلام للبيع. أخذ الشيخ ينادي وكأن هناك زبائن تملأ المكان، وأنا أصابتني لحظة من وسَن، فإذا بالهاتف يجيئني على هيئته التي جاء بها في المرّة الأولى ويقول لي:

سيدتي تقرئك السلام وتقول لك: الآن أنت مني، فأنا الكلمات الثلاث، وأنت الذي على يديك تتجسد معاني كلماتي، فادنُ ولا تَخَف، فقد دَنَت لك قطوفي، وأنت قريب.. قريب.

تنبهتُ وتلفتّ حولي فلم أجد للشيخ أثرًا وتعجبتُ من أمر الهاتف، فله مدة لم يزرني منذ مرّته الأولى حتى ظننت أنه نسيني، وقد تأكّد لي هذه المرّة أن سيدة المخطوط لن تتحدث إليّ مباشرة، بل من وراء حُجب، ما دمتُ لستُ رجلها المرتقب، وما أنا إلا إحدى رسائلها إليه، قرأت عن ذلك في بعض المدوّنات، نظرتُ إلى باب المدينة فكان مغلقًا كعادته، لا أسمع صوتًا ينمّ عن وجود أحياء خلفه، دبّ اليأس في نفسي لمّا تذكرتُ الشيخ وكيف تركني دون طعام أو شراب أو نقود، وربما لن يُفتحَ البابُ قبل هلاكي، لكن حديث الهاتف طمأن قلبي، ألم تقل على لسانه إنني قريب، وإنها معي بكلماتها الثلاث، ربما تعرف الآن ما أنا فيه، قد تبحث لي عن مخرج حتى تصل بي إلى غايتها. وبينما أنا أتفكر، إذ سمعتُ جلبة عظيمة وصرير شيء يُفتح فتلفتّ ناحية الصوت فوجدته باب المدينة، ورأيتُ أفواجًا من البشر والدوابّ تخرج منه وتملأ المكان وهم لا يرونني أو يشعرون بوجودي بينهم. قمتُ مبهوتًا وأنا لا أصدّق بنجاتي فجريت على الباب وتسللتُ داخلاً إلى المدينة.

❀ ❀ ❀

سكت الشيخ عن الكلام وقد ظهر عليه الإجهاد وبدا وجهه شاحبًا، فكأن الذكرى آلمته، ثم إنه بعد أن استراح قليلاً صبّ في حلقي سائلاً حمضيًا له رائحة نفاذة من قارورة كانت موضوعة بجانبه، وتذكرت أن لي مدة لم أتزوَّد، وكان هذا السائل له فوائد عجيبة، فإنه لما استقر في جوفي شعرت بسخونة تسري في بدني والدماء تجري في عروقي وتصعد إلى رأسي وسكن ألم الجوع في معدتي، وبدأ ذهني يصفو ويروق، وأخذ النعاس يدغدغ جفوني فأسلمت له نفسي، فرأيت منامًا عجيبًا، رأيت نفسي جالسًا مكان الشيخ على باب المدينة في انتظار أن يفتح، وكل ما حدث للشيخ قد حدث لي أنا، مقابلتي لبائع الكلام، شرائي منه الكلمات الثلاثة، وقوفي بلا حول ولا قوة على باب مدينة أجهل ما سوف يحدث لي فيها، تلفت حولي بحثًا عن ونيس فرأيته، جسده جسد طائر عملاق يسد عين الشمس ناشرًا جناحيه الهائلين. رأسه رأس إنسان عجوز وَخَطَ الشيب شعره، وابتسم لي قائلاً: الأرواح الصادقة في محبتها تتلاقى وتأتلف، ثم إنه أشار بجناحيه إلى باب المدينة وقال لي: تقدم، فهي من الآن حكايتك أنتَ فارو ما سوف تشاهده وتعاينه. ثم إنه رفَّ بجناحيه وطار عاليًا. وبينما كان جسد الطائر يتضاءل ويتلاشى، كنت ألمح وجه الشيخ يبتسم لي مشجعًا على التقدم.

❀ ❀ ❀

حكاية الطحان والعفريت والجاريتين

لما انفتح الباب جريت عليه وقد رُدت إليّ روحي بعد يأس، فرأيت مدينة عامرة واسعة الحدود بقصور وأسواق مزدحمة وحركة بيع وشراء، والناس لاهية لا أحد يلتفت إلى الآخر، فأخذتُ أتجول بينهم دون أن يتعرض لي أحد، وأخذتني قدماي بالقرب من دكان طحان يبيع الحبوب والطحين، ولمحت شيخًا طاعنًا يجلس أمام الدكان وبين يديه طعام وشراب، فاشتاقت نفسي له وتحركت أحشائي تطلبه، فأخذت أتلكأ أمام الدكان وعملت نفسي أتفرج على الحبوب بينما أنا في الحقيقة أنظر إلى الطعام، فلما أحس بي وتتبع نظراتي فهم أني جائع، ودون أن يرفع وجهه أو يتوقف عن الأكل أشار بيده يدعوني، فلم أشعر إلا وأنا جالس أمامه آكل.

وحين رأى ذلك توقف عن الأكل وترك لي الطعام حتى أتيت عليه كله، فلما انتهيت جاء بالماء فغسلت يديّ وحمدتُ ربي وجلست لا

أعرف كيف أبدأ حديثي معه. ثم إنه جاء بشراب فشربنا وابتدرني قائلاً: أنت غريب عن مدينتنا فمن أين أتيت؟ وإلى أين تمضي؟ وما حكايتك؟ فأعدتُ عليه قصتي ــ وليس في الإعادة إفادة ــ فلما سمعها هز رأسه قائلاً حكايتك عجيبة، ولكن الأعجب أنك وصلت إلى مدينتنا، فأحدٌ لم يصل إليها من قبل، ثم سألني: هل مررت في طريقك ببحر الظلمة؟ قلت لا، إنما صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء. قال: وهل صعدت جبالاً شاهقة تُسمى جبال قاف؟ أجبت: إنني لم أر في طريقي سوى الرمال. فتعجب من ذلك وقال: اعلم يا ولدي أن لك كرامة بسط الطرق وطي الأرض والجبال، فهذه المدينة تقع خلف بحر محيط يُسمى بحر الظلمة، وبعد هذا البحر توجد جبال قاف، وخلفها تقع مدينتنا، أرض الرجراج.. وأما سبب هذه التسمية فهو أن أرضها كانت رجراجية لا تستقر عليها الأقدام، وقد استقرّت وعُمّرت لأن بها صنمًا من نحاس يمدّ يده إلى الأرض، وهذا الصنم رُصِدَ لأجل استقرار الأرض، فإذا بطل رَصَد الصنم ابتلعت الأرضُ هذه المدينة بمن عليها، وخلف هذه الأرض لا توجد أرض أخرى تصلَح للحياة والزراعة ووجود بشر، وقد قيل إن خلفها سبعين ألف أرض من فضة ومثلها من حديد، ومثلها من ذهب وعنبر، وهي مشرقة بالنور، وسكانها ملائكة، لا تُرَى فيها شمس ولا قمر ولا حر ولا برد، طول كل أرض عشرة آلاف سنة، وخلف ذلك حجاب من ريح، وخلف ذلك حية عظيمة محيطة بجميع الدنيا تسبح لله تعالى إلى يوم القيامة.

فرح الطحان لي واطمأن إليّ وعرض عليّ الاشتغال عنده، فأخذني إلى حيث يقع مطحن الغلال وقال: تبيت هنا وتقوم بمساعدتي، فأنا كما ترى أصبحت شيخًا لا أقدر على تشغيل الطاحونة وحدي، إلا بمساعدة زوجتي، فتدبر أمرها أنت، ولكن قبل كل شيء أقول لك على سرّ إن شئت الإقامة بعد سماعه فعلى الرحب والسعة، وإن شئت الرحيل فأنت وما تريد. ثم إنه سكت قليلاً قبل أن يكمل: يا ولدي، إن لهذه الطاحونة قصة، فقد كانت لأخوين قبلي يملكانها، فاختلفا على مَن يديرها واقتتلا فقتل كل منهما الآخر، أغلقت بعدهما وصارت مهجورة إلى أن اشتريتها هي والمحل وأعدت افتتاحها وتَعميرها، وأنا لا أعلم أن بها فرخًا من فروخ الجان اتخذها مسكنًا، وكلما اشتغل عندي غلام فما إن ينام حتى يخرج له هذا الجني فيذبحه من الوريد إلى الوريد، وأجده في الصباح مضرجًا في دمائه، وأنا قلت لك لأبرئ ذمتي وتدبر أنت حالك.

نزل عليّ سهم الله وأنا أسمع لكلام الطحان وأفكر في هذه المصيبة، وقلت لنفسي: ها أنت تركت مدينتك وأهلك وقطعت المسافات وطويت الصحاري وأضعت أموالك حتى تجيء عند هذا الطحان فُتقتَل على يد عفريت، ولكن ما حيلتك، فإن تركته فإلى أين تذهب، فسوف تموت جوعًا وعطشًا في الطريق وليس معك لا طعام ولا مال، فاصبر لعلك تجد وسيلة تحتال بها على هذا الجني، فلما طال صمتي

هزّ الطحان رأسه قائلاً: أنا أعذرك فلا أحد يستغني عن عمره، قال ذلك ظنًا منه أنني رفضت عرضه. فقلت: اعلم يا سيدي أن الأعمار بيد الله، والمكتوب ليس منه مهربٌ، وأنا قبلت العمل عندك وأجري على الله، فرح الطحان بكلامي فرحًا شديدًا وقام قبل رأسي وقال: تبيت الليلة عندي. ومن الغد تبدأ عملك.

في الصباح صحوت على صوت الطحان يوقظني، وكان قد أحضر طعامًا فأكلنا، ثم بعد ذلك أخذني من يدي حيث تقع المطحنة، فأرشدني على كيفية العمل في طحن الغلال وتعبئتها في الأجولة وتوصيلها إليه في الدكان، ومرّ النهار سريعًا وأتى المساء فأغلقنا الدكان ودخلت أنا المطحنة وأغلقت بابها على نفسي وجلست وقد جافاني النوم من شدّة الخوف وقلت: موتي وأنا يقظ أهون عندي منه وأنا نائم، وظللت على هذه الحال أغالب سلطان النوم حتى أوشك الليل على الانتصاف، وقد التصقت جفوني وأنا أقاوم، وبينما أنا كذلك، إذ سمعت جلبة وقعقعة وأصواتًا كثيرة عالية، وإذا بالأرض تنشق ويخرج منها ماردٌ صار يتمدَّدُ أمامي وينفرد فكأنه قلة من القلل، أو قطعة فُصلَت من جبل، ثم أخذ ينكمش حتى ظهرت ملامحه فاقشعر بدني وبُلتُ على نفسي من هول منظره، وكان يسحب بيديه جاريتين، واحدة وقفت عن يمينه سوداء وأخرى وقفت عن شماله بيضاء، والجاريتان أجمل من بعضهما، وابتدرني قائلاً: جئتَ لحتفكَ أيها

القرنان، فاختر لك ميتة فهذا لابد منه. فلما وجدني أرتعد وقد انعقد لساني واصفر وجهي فحاكَى وجوه الموتى أكمل: سوف أرمي عليك سؤلاً فإذا أجبتني الجواب الصحيح تركتك ووهبتك حياتك وإذا لم تجبني ذبحتك في التو واللحظة. قلت ولساني يتلجلج: يا سسسسيييدى افف.. اف اف عل ما ببببدالك، قال: إن لي مدّة وأنا في حيرة من هاتين الجاريتين أيهما أختار زوجة لي؟

بسملت وحوقلت ونطقت الشهادتين وجهزت نفسي للعفريت يفعل بي ما يشاء، ثم تذكرت وأنا في هذه اللحظة الشيخ بائع الكلام الذي اشتريته منه فقلتُ أُجيبه بإحداها لعل وعسى، تمتمت بصوت خافت: «حبيبك اللي تحبه ولو كان عبد نوحي». نطقتها ودفنت رأسي بين ركبتيّ في انتظار نهايتي فسمعت ضحكته ترج المكان، رفعت رأسي فرأيته يرقص من الفرح وتقدم مني وأنا أخذت أقع في عرضه وطوله أن يتركني، فركع أمامي على ركبتيه وقال: أحسنت الإجابة يا إنسي، فإن لي عشرين سنة آتي إلى هذا المكان وأسأل سؤالي ولا يعرف إجابته أحد فأذبحه، وأنت قد أرحتني وها أنا ذا أهبُكَ حيَاتكَ ها ها ها ها هـ... اختفى العفريت من أمامي كما جاء ومعه الجاريتان، بينما ضحكاته ما زال صداها يرجّ الطاحونة، وأنا غير مصدق بنجاتي منه حتى ظهر ضوء الفجر فجاء الطحان وفتح الباب ومعه الكفن وآلات الغسل وهو يظن أنه يراني مقتولاً، فلما نظرني أمامه حيًّا أُرزَق تعجّبَ وفرح بنجاتي، وبعد

أن هنأني بسلامتي سألني عما حدث، قصصت عليه الحكاية فظهرت على ملامحه الدهشة وازدادت محبته لي وصار لا يطيق فراقي.

وكان للطحان زوجة شابة مَن يرها يظن أنها ابنته، وكانت ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال تزوجها على كبر فأنجبت له ولدًا، ومن المقدّر أنها سمعت من زوجها الطحان بحكايتي فجاءتَ ذات يوم لتراني وتتعرف بي، فلما وقع نظرها عليّ تعلق قلبها بي، وصارت تتحين الفُرَص للقدوم إلى الطاحونة بقصد الاجتماع بي، وكنت لا أُلقي بالاً لجمالها وأتركها وأنشغل بطحن الغلال ولا ألتفت إليها وهي تتمسح بي وتزداد تعلقًا وتلح على طلب وصالها وبينما أنا نائم ذات يوم تسللت هي إلى الطاحونة، وانتبهت لأجدها نائمة بجواري ملتصقة بي عارية، فنظرتُ إليها وجدتُ حسنًا وجمالاً وقد أرخَتْ الطَرْفَ وأظهرَت الظُرْف، فانتقلت حرارة جسدها إلى جسدي وكدت أستجيب لها إلا أن تجسّدَتْ لي كلمة من كلام الشيخ بائع الكلام ملأت أسماعي وصارت تطن في أذني، فانتترت واقفًا وألقيتُ عليها ما يسترها ونهرتها قائلاً: «من آمنك لم تخونه ولو كنت خاين»... فانصرفَتْ وقد أضمرت لي في قلبها. وفي اليوم التالي جاءني الطحان وقد بان على وجهه الغيظ وفكره تغير من ناحيتي وأنا لا أعرف أسباب ذلك. فقال لي إن له أخًا في البلد الفلاني وله مدّة لا يعرف عن أحواله شيئًا، وأعطاني رسالة مختومة لأسلمها له يدًا بيد على ألا أتأخر عنه بالرد. فركبت من وقتي

وساعتي وأنا أضع الرسالة بين هدومي حتى لا تضيع، حتى أشرفت على بلد يبعد عن ذلك الذي أقصده بمسيرة نصف يوم، وكان الليل على الأبواب فقلت أستريح هنا بعض الوقت ثم أستأنف رحلتي في الصباح، فلما دخلت البلد وجدت زينات معلقة وأفراحًا قائمة والناس في حظ ولهو، فسألت عن سبب ذلك فقيل لي إن أهل هذا البلد يحتفلون في مثل هذا الوقت من كل عام بذكرى قتل المارد الذي تسلّط على المدينة في سنة من السنين وأراد أخذ أجمل فتاة فيها، وهي ابنة رجل حطّاب فقير ليس له غيرها، وكان الناس يحبونها لجمال خِلْقتها وخُلُقها، وقد ضرب المارد لأهل المدينة موعدًا ليقوموا بتجهيزها حتى يأتي ويأخذها فاغتمت الناس وعملوا مأتمًا لذلك، فلما جاء الموعد قام المارد بغارةٍ على المدينة واختطف ابنة الحطّاب ووضعها على قمة الجبل المحيط بالمدينة، وكان أحد أبناء ملك المدينة يعشق هذه الفتاة وبينهما محبة زائدة، فلما حدث ما حدث اغتم هذا الأمير العاشق وصَمم على محاربة المارد وتخليص حبيبته من بين يديه، فجرّد له جيشًا وذهبوا لملاقاته فهزمهم المارد، فجرّد له ثانيًا فقتلهم المارد حتى أفناهم جميعًا، ولم يجد الأمير مفرًا من الذهاب إليه ومحاربته بمفرده فانتصر عليه وقتله وخلّص حبيبته ابنة الحطاب، والمدينة تحتفل في هذا الوقت من كل عام بذكرى تلك الواقعة، أما حكاية الحرب التي دارت بين الأمير والمارد، وما دار بينهما من أهوال، فهي حكاية عجيبة ــ ليس هذا أوانها ــ فلما

سمعت ذلك الحديث، تذكّرتُ الجملة الثالثة من كلام الشيخ، «وأن ساعة الحظ ما تتعوضش» فأقمت الليل في لهو وطعام وشراب حتى غلبني النعاس فنمت، وكان الطحان قد أراد الاطمئنان على توصيلي الرسالة إلى أخيه ومعرفة ما جرى، فأرسل ابنه للاستفسار، فمرّ على المدينة وأراد أن يستريح قليلاً، وبينما هو يتجول للفرجة عثر عليّ نائمًا أمام الحانة، حاول إفاقتي فلم يفلح من شدّة السكر الذي أنا فيه فأخذ يُفتّش في هدومي حتى عثر على الرسالة فقام من وقته وساعته وسافر إلى عمه لتوصيلها. أما أنا، فبعد أن أفقت قُربَ العصر بحثت عن الرسالة فما وجدتها فخفتُ أن تكون ضاعت مني فتلفتُّ حولي علّني أجدها، فلمحني صاحب الحَانة وأخبرني أن شابا صغيرًا أخذها وأنا نائم ووصفه لي فعرفت أنه ابن الطحان، واطمأنت نفسي فقمت ركبت عائدًا إلى الطحان، فلما دخلت عليه رأيته جالسًا على باب الدكان وظهر الغضب بين عينيه لّما أبصرني وبان انزعاجه لقدومي. تعجبت من هذه المقابلة، وبادرني بالسؤال: كيف أتيت؟ وهل أوصلت الرسالة إلى أخي؟ فأخبرته بما حدث، وما كدت أنتهي من حديثي حتى قام فجأة على حيله ورمى عمامته في الأرض وصرخ ولطم خديه، وأنا في عجب من أمره، فلا شيء في حديثي يغضبه إلى هذا الحد، والرسالة وصلت سواءً بي أو بغيري فما سبب كل ذلك؟!!. وبينما أنا كذلك لا أعرف شيئًا مما يدور أمامي إذ جاءت زوجته فرأته على حالته هذه فسألته عن

الحكاية، أخبرها بأن ولدها هو الذى أخذ الرسالة مني لتوصيلها. فلما سمعَتْ ذلك شقّتْ ثوبها من الصدر وأخذتْ تفعل مثلما يفعل زوجها وصارت تصرخ وتقول وهي تحثو التراب على رأسها، لقد ضاع حيلتي، مات ولدي وأنا السبب. التفّ الناس حولنا وهم يسألونني وأنا لا أعرف بماذا أجيبهم فأخذوا يسألون الطحان فقال وهو يبكي: اعلموا يا ناس أن هذا الفتى له مدّة يعمل عندي، وقد راود امرأتي عن نفسها فأبت خيانتي وشكَته لي، وأنا أردت معاقبته بعد مقابلته إحساني بالإساءة فأرسلتُ معه رسالة لأخي أقول فيها حين تصلك رسالتي فاقتل حاملها، فإنه فعل معي كذا وكذا. فتلكأ هذا الفتى في الطريق فأرسلت ولدي ليطمئن قلبي على أن الرسالة وصلت أخي، فعثر عليه وأخذها منه لإيصالها إلى عمه الذي لا يعرفه، فإنهما لم يريا بعضهما قط، ولابد أنه قتله الآن بدلاً من هذا، ثم عاد إلى ولولته وأخذ ينتف شعر لحيته، وعرفت أن ما حدث كان بتدبير من زوجته فقلت: اعلموا أيها الناس أنني بريء من هذه التهمة، وما كل ذلك إلا بتدبير من هذه المرأة الخائنة، فإنها فعلت معي كذا وكذا مما تقدم ذكره، وكانت هي واقفة تسمع وتُؤَمّنَ على كلامي وهي تبكي، عند ذلك قام الطحان إليها وقد عرف خُبثَ فعلتها فألقاها على الأرض ووضع قدمه فوق صدرها وأمسك برأسها وذبحها من الوريد إلى الوريد كما تُذبَحُ الشاة، وصار يصرخ ويقول: هذا جزاء الخيانة، أخذت بثأر وَلَدي.

حكاية الشيخ وما جرى له مع التوابيت
كذا ذكر بعضِ ملوك
حِمْيَر وعجائب صنعتهِم

هل كنت نائمًا حين حدث لي ما حدث؟ وهل قُمتُ فَزِعًا على صوت الشيخ يدعوني للصحيان؟ ألم يكن ما رأيته حقيقة؟ فما زال منظر المرأة الذبيحة ماثلاً أمام عيني، والرجل الطحان وقد أصابته لوثة يهرول صائحا: أخذتُ بثأر ولدي. هل قرأت عن ذلك في المخطوط؟ هل حدّثتني الأميرة به؟ ويا تُرى هل هذه حكايتي أم حكاية الشيخ، هو الذي ينظر إليَّ الآن وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة ما عدت أعرف مصدرها، أتراني إذا قلت له عما رأيته مُصَدِّقي؟ أم يظن أن خبلاً أصابني؟ يعرف أني ما عدت صالحًا للمهمة فيفُضّها سيرة ويتركني. وما الذي جرى لي حتى أُصبح هكذا لا أعرف صحوي من نومي، ما يحدث حقيقة أم خيال؟ وتلك النظرة التي ينظرها لي لغة لا أعرف شفرتها، لو أنه نطق لكفاني أسئلتي التي لا أعرف لها إجابة، لكنه ظل يُحدّق فيّ مدّة ساعة وما فترت ابتسامته، سادرًا في صمته، حتى أوشكت على سؤاله. جرح هذا السكون الموحش، لحظتها، وكأنه شعر بدُنوي من مساءلته، تكلم: إنها حكايتي أيضًا، ولا تَنس أنني كنت معك، وقد رأيتك مثلما رأيتني. تذكرت وجه الطائر العملاق وكدت أقول له إنني رأيته بالفعل على باب المدينة حين قال: نعم أعرف، فقد كنت أنا، وما حدث لك حدث لي أيضًا فالحكاية واحدة مهما تعدّدت فروعها، ولكنك لن تَعرف أبعد من ذلك، وأنا عندي بقية الحكاية، فدعني أُكملها لكَ، فهي حكايتي على كل حال.

❀ ❀ ❀

بعد أن رأيت ما حدث للطحان وزوجته وولده، لم أجد بدًّا من تركه والبحث عن عمل آخر، فظللت قائمًا بالمدينة مُدّةً دون أن أجد من أعمل عنده حتى نفد صبري وزهقت، ولا أدري إلى أين أتجه بعد ذلك، حتى كان يوم، وبينما أنا مضطجع في المسجد الذي آوي إليه كل يوم، وكنت أنظر إلى سقفه متأملاً، وإذا بالهاتف يهتف بي:

قُم أيها الرجل الكسول فقد انتهت مهمتك هنا،
اذهب إلى الأرض التي صِفتُها كذا وكذا، حيث
تجد موضعًا فيه ضالتك ويكون نهاية بحثك،
فاجتهد حتى تصل إليه.

فقمت من وقتي وأنا أجدّ في السير حتى تركت المدينة ورائي وظهرت أمامي الصحراء، اتجهت شمالاً كما قال الهاتف، فلمحت

عن بُعدٍ جبلاً في وسطه نقطة سوداء، فلما اقتربت منها تبيّنتُ أنها
مغارة غائرة في ذلك الجبل، ووجدت على باب المغارة ثعابين كثيرة
متشابكة الواحد منها مثل الفيل، ورأيت نفسي مشدودًا لهذه المغارة
فصممتُ على دخولها، ولكن كيف وأنا إذا تقدمت خطوة واحدة
تلتهمني الثعابين والحيات؟! وقفت متفكرًا مدة ساعة، فلما أعيتني
الحيلة حدثت نفسي بالرجوع من حيث أتيت، وبينما أنا أستدير
حانت مني التفاتة فإذا بالثعابين والحيات تتنحى عن باب المغارة
مبتعدة، تقدّمتُ حتى وصلت باب كهف فدخلت نفسي وَحشة
شديدة، وسمعت من داخله دَوِيًّا هائلاً، ولمحتُ على باب الكهف
نقشًا بالقلم الحِمْيري، وكنت عارفًا بقراءة هذا القلم فقرأت: ادخل
يا رجل وخُذ حظك من الدنيا. فتقدمتُ داخل الكهف فإذا على
جانبيه حيات تفح ورياح تجري، وسمعت دَويًّا مثل الأول، فلم أُلقِ
بالاً للحيات وشَدَدتُ قلبي وتقدّمتُ حتى وقفت أمام باب آخر أعظم
من الأول وأشد وحشة ورهبة، ووجدت مكتوبًا عليه: تقدَّمْ ولا
تَخَفْ، لو دامت لغيرنا لدامت لنا. فدخلت منه وتقدمت فرأيت بابًا
أعظم مما رأيت سابقًا مكتوبًا عليه: إذا لم تكن أنت هو فارجع قبل أن
تهلك وتبلغ عدمك واكتفِ بما رأيت.

شعرتُ برعدة تملكتني وانكمشتُ على نفسي وأخذَتْ أسناني
تصطدم ببعضها. فماذا يحدث لي لو أنني لست هو صاحب الطلسم؟

وبينما أُقدّم قدمًا وأؤخر أخرى إذ زلقت إحداهما بالقرب من الباب،
فإذا بتنّين أحمر العينين قد برز إليّ فاتحًا فمهُ يوشك على التهامي،
عَدَوتُ هاربًا وأنا أنظر خلفي فلم أجده يركض ورائي،بل سكن مكانه،
فوقفتُ وحدثتُ نفسي بأنه لو كان رآني لما تركني، بل لجرى ورائي
وابتلعني، وما هو إلا طلسم. سرتُ مرّةً ثانية نحوه فتحرك كحركته
الأولى، تنحيت عن طريقه وأخَذت أمشي قليلاً قليلاً وهو يتحرك
أمامي حتى جاءت قدمي عند موضع غاصَتْ فيه، ركعتُ على ركبتي
وأخذتُ أحفر بأصبعي إلى أن ظهرت سلاسل على بكرات. وكان
الليل قد غشيني وعَدمتُ الرؤية فأسرعتُ بالخروج وبت ليلتي عند
باب الكهف، ولّما أوشك الليل على الانتصاف سمعت بكاء وعويلاً
آتيًا من الداخل، ونظرت فإذا بنار هائلة خارجة من داخل الكهف، لم
أبرح مكاني من شدة الخوف، وأخذَت النار تلتفّ حولي دون أن
تؤذيني حتى انقطعت. ثم أتت نار أخرى أشد من الأولى فصبرت لها
كذلك حتى مالت عني وأنا في حيرة من أمرها، ولم يغمض لي جَفن
حتى ظهر نور الصباح فدخلت الكهف مرّة أخرى وتقدمت إلى أن
وصلت لمكان التنين والحفرة التي حفرتها فوجدت السلاسل، وبدأت
أقلعها من جذورها حتى سقط التنين وبَطلَ عمله. كذلك الباب
الآخر الذي تقدمت إليه، ما إن هَممتُ بفتحه حتى سمعتُ زئيرًا
وظهر لي أسد بلبدة تُغطّي جسدهُ يخرجُ نارًا من منخريه، رجعتُ فرجع

الأسد إلى موضعه فَعلمتُ أنه طلسمٌ هو أيضًا، حفرتُ في موضع حركته حتى أبطلت عمله، ثم إنني دخلت من الباب فإذا بدار عظيمة وفيها بيت يتوسطه سرير من ذهب براق عليه شيخ وفوق رأسه لوح من ذهب مُعَلق، وسقف البيت مُرَصّع بأصناف اليواقيت والجوهر، وعلى رأسه في الحائط لوح آخر من ذَهَب كُتِبَ فيه: أنا شَدّاد بن عاد، عشتُ خمسمائة عام، افتضَضتُ فيها ألفَ بكر، وَقتلتُ ألف مُبارز، وركبتُ ألف جواد، وها هي حالي، فمن رآني اتَّعظَ. ثم مِلتُ إلى الركن الذي على يمينه فإذا هو سرير من ذهب وعليه جاريتان كأنهما قمران مَن رآهما ظنهما من الأحياء، ورأيت مكتوبًا على لوح فوق رأسيهما: مَن رآنا لا يثق بالزمان، وليكن على بيان، فإنه يُحدثُ العزّ والهوان، أنا وأختي من بنات الملك شدّاد بن عاد، ملتُ إلى الركن الذي على شماله فوجدت تابوتًا لم أر أجمل منه، حاولت فتحهُ فلم أقدر على ذلك، ووجدت مكتوبًا على لوح بجانبه: خذهُ، لن يفتحه إلا صاحبه، مَن يعثر على المخطوط، فهو مرصود باسمه. حملت التابوت وخرجت ولم آخذ شيئًا غيره من الكنوز التي أمامي، وما إن ابتعدت قليلاً عن الجبل حتى سمعت صوت فرقعة، التفت ورائي فرأيت الكهف وقد خرجت النار من كل جوانبه وحدث انفجار وانهار جانب من الجبل، فأدركت أن الكهف انهدم بعد رحيلي وانطمست معالمه فلا يعثر عليه أحد بعدي.

أخذت أُوسعُ من خطوي وأنا أحمل التابوت فوق رأسي، ولمّا شعرت بتعبٍ جلستُ لأستريح قليلاً، وراودتني نفسي عن فتح التابوت لمعرفة ما بداخله. لم أفلح في فتح قُفله، وحانت مني التفاتة لنقشٍ عليه يقول: لا يفتحه إلا فلان بن فلان، فبه سوف يرى العاشق معشوقه ويلتم الشمل.

اشتدّ بي الغيظ، فبعد كل ما عانيت في الحصول عليه أجد اسمًا غير اسمي، وأجد أني لست الموعود بمشاهدة الأميرة، فبحثت عن حجرٍ وهَممتُ بسحقِ القفل، فإذا بصوت يأتي من داخل التابوت يقول:

تأدبْ يا هذا واقنع بما وصلتَ إليه ولا تتقدم خطوةً واحدة حتى لا تندم، فلست أهلاً لهذا الأمر، وما أنت من الموعودين، هذا تابوته، وله وحده يُفتح، وهو قد بدأ رحلة بحثه الآن، وقريبًا يصل إليك ويستدل عليك، وسوف تعرفه بعلاماته الظاهرة والباطنة، وهذا آخر ما يصلك مني وإليك السلام.

كان صوت الهاتف واضحًا ومحددًا، فهي المرة الأولى التي يحدثني عن حقيقة مهمتي، فما أنا إلا سبب لتسهيل مهمة الآخر، ذلك المجهول الذي تغير قلبي ناحيته دون أن أعرفه، أليس هو أحق

الناس بمعرفتها، رؤيتها والدنو منها، إنه رجلها وليس أنا، فكَّرتُ أن أرجع إلى الكهف وأتركه هناك، وليبحث هو عنه كما بحثت أنا، لكن الكهف تهدم، تركته في الخلاء وتقدمت خفيفًا وحدي حتى ظننت أنني أصبحت قريبًا من حدود العمار فإذا بي أجدني مرة أخرى أمام التابوت، أعدت المحاولة عدة مرات، وفي كل مرّة أجدني أمامه، فكأني أسير في دائرة لا مخرج منها مركزها هو التابوت، فعرفت أن لا فائدة، وأن عليّ إكمال ما بدأته، فحملته على كتفي واستأنفت رحلتي حتى وصلت إلى مدينتي فرأيت معالمها تغيرت، بحثت عن أخويّ فلم أعثر لهما على أثر ولا أحد دلني عليهما فحزنت لهما وأخذت أبكيهما مدة سنة حتى أيست من نفسي ومن الدنيا فهجرتها وجئت إلى هذه المغارة وانقطعت فيها للعبادة وتَعلمِ الحكمة وصنعة الأقلام علّني أُوفق في العثور على صاحب التابوت فأردّ له الأمانة قبل أن يأتيني الموت، إلى أن أتيتَ أنتَ فعلمتُ أنك صاحبه الذي على يديه يُفتح، ويكون قبري الذي حملته على ظهري لأُدفَنَ فيه.

سكت الشيخ وأسبل جفنيه، ولونه تغير، وأنفاسه اضطربت، فأدركت أنه في شدّة، فازداد جزعي عليه، وكيف لا وقد نمت بيننا عروق محبة. قلت أطمئن على صحته: هل تحسّ تعبًا. فأومأ إليّ وفتح عينيه نصف فتحة وهمس بتهدُّج: اعلم يا ولدي أنني مفارق الآن، وأن أَجلي قد انقطع، فاصنع معي معروفًا ولك ثوابه. قلت وقد بُهِتُّ

بحديثه: العمر الطويل لك يا والدي، مرني وعليّ الطاعة. مدّ يدهُ وراءه فأخرج قماشًا من الساتان وآخر من القطن وضعهما أمامي وقال: إذا رأيتني خرجَتْ روحي إلى بارئها فاصبر عليّ ساعة حتى تتأكد من موتي، ثم قم بتغسيلي وتكفيني في هذين الثوبين ثم ضعني في التابوت.

ما كاد الشيخ ينتهي من حديثه، حتى رأيت رأسه مال إلى الأمام، وجسده يرتخي ويميل على جنبه اليمين، فقمت جريت عليه وأخذت أُقلّبه يمينًا وشمالاً حتى تأكدت من أنه قُبِضَ فأنمته على الأرض، ثم خلعتُ عنه ملابسه وأحضرت آلات الغُسل وكانَ الشيخ قد جهّزها فغَسّلته وكَفنته وأنا أقرأ في أثناء ذلك ما جاء على خاطري من آيات الذكر الحكيم، وقد أظهر أمامي كرامة، فإن يده أخذت تتحرك حتى جاءت على عورته فسترتها فأدركت أنه عالي الرتبة. انتهيتُ من تجهيزه ووضعته أمامه وصلّيتُ عليه وقمتُ بتلقينه سؤال المَلَكين، ثم جلستُ أبكي مدّة ساعة حتى وجدت أن إكرام الميت التعجيل بدفنه فوضعته في التابوت وقرأت الفاتحة على روحه وأرواح أموات المسلمين وخرجت.

كأني وُجدتُ في هذه المغارة منذ أَبَد، فما أن بدأتُ أخطو خارجها حتى أحسستُ بغربَة ووحشة، ما قبل مجيئي أصبح غائمًا وضبابيا، الآتي لا أعرفه، ولا عاصم لي الآن سوى التذكر علّني

أُلملم نُثاراتي أقبض على حكاياتي قبضي على جمرٍ مُتّقد، وحكاياتي فصّلَتْها الأميرة في المخطوط، لكن أحدًا غيري وغيرها لا يعلم عنها شيئًا، وأنا الذي أُعطيتُ كتابي بيميني لم أَبُح للآن كيف وَقَعَ في يدي، وها أنذا أُذيع سرّي للمرّة الأولى، فهل كان مُقدّرًا لي أن أجده في مدينتي بعد أن أعياني البحث في المدن الأخرى؟ وتلك البلاد التي جُبتُ طولاً وعرضًا أتقفى أثره دون جدوى، فلا أحد رآه أو سمع عنه أو اهتم بالتقصي مثلي، كأني وحدي المعني به، وأنا وحدي المحسّ بحسرة الفقد وضرورة البحث عنه، إماطة اللثام عن محتواه، تبصرة العباد بخطورته إذا ما عرفه الناس، وهو الذي اختارني وبحث عني قبلي، أظهر لي نفسه في ساعة عدم، حين كنتُ نسيًا منسيا، وكان يكن في كنه يترقَبني ويتربص بي، في ذلك المبنى العتيق الحاوي ذاكرة الأسلاف، والذي كنت آوي إليه كلما دهمني مصاب أو شعرت بغربة، أُدمن النظر في المدونات القديمة. ربما أُصابُ منها بنفحة تَعصمني، وهل كان لابد أن تُحدثَ زلزلة وينهدم المبنى حتى يظهر من بين الأنقاض؟ ها هو يفصح مرّة أخرى عن سرّ من أسراره، ظهوره فجأة بعد كارثة عظمى، فكأن الكوارث تحييه، وكأن الملمات والحوادث الجسام مقدّمات لبداية أخرى له، كيف وقعت الزلزَلَة؟ وكيف تراقص المبنى على أنغام نافخ البوق الملاك؟ كم لبثتُ مدفونًا تحت

أنقاض المبنى؟ خروجي في اليوم السابع حيا بين مُهلّل ومُكبّر؟ كيف كنت آخذ نفسِي وأرده؟ وما الذي كنت أفكر فيه؟ إبصاري المخطوط بين الركام؟ كيف عرفت أنه هو دون غيره؟ هل أظهر لي علامة؟ هل سعى إليّ ووقع بين يديّ بتدبير منه؟ ما الذي حدث بيني وبينه وأنا في قبري؟ هل أحسست بألم؟ أو شعرت بعطش؟ أو ألمّ بي جوع؟ هل أعانني المخطوط على كل ذلك؟

تلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها.

رنّتْ في أذنيّ كلمات شيخ الجبل: اتجه كما يحلو لك، لتقابل طرقًا ثلاثًا، طريق سلامة، مَن سلكها راح في غفوة لا قيام منها، وطريق ندامة ليس لسالكها رجاء إلا مَنْ عُصِم، وطريق الرواح بلا غدو ينتظر فهي طريقك، من سلكها اقتفى خطو أسلافه، تلك طريق المحبين، وفيها جهادهم، ومنها نجاتهم من حُرقة العشق وألم الصبابة، دع قلبك دليلك في الحلكة، فقلب المحب دليله.

«وللحب علامات يقفوها الفَطن، ويهتدي إليها الذكيّ، فأولها إدمان النظر، ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه، ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية مَن يُشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه فجأة(*)...

(*) طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي.

حدّث الشيخ أن اسمها مطابق لصورتها، وأنني حين أبحث عن اسمها، فإنما أبحث عنها، وأني واجده نثارًا في المدائن، وأن لحظة اكتماله أجتمع بمن أحب.

وحدّث رحمه الله فقال: ليت الأجل يمتد بي لأسيح معك في الدنيا وأكون تابعًا لك كظلك حتى تجدها فأحظى بنظرة.

فهل تُراني بقادر على إكمال طريقي وحدي لأشاهد مَن وقع في عشقها قلبي، من تعلّق وجودي بمجرد النظر إليها، وَصْلُ حبائلي بحبائلها، انشطاري وتحول ذراتي صوبها، فمن أين وإلى أين الطريق نحوها؟ لمسها، تنسُّمُ روائحها، السباحةُ في بحر بهائها الفيّاض، غُمْرى بغَمرٍ من ملاحَتها، إصابتي بقبس من لحظها المهلك. هل مَرّ حبيبي من هنا؟ هل وطئت قدماه تلك الحصباء؟ هل عفر قدمَهُ بهذا الأديم؟ وهل تنسَّم هواء هذه النقطة من الأرض، هل وقف هنا وأخذَ نَفَسًا ورده، هل عَلقَت أنفاسهُ بريحِ المنطقة، ورأته شمسٌ فطبعَتْ ظِله على الرمل؟ هل أبصره قَمر ففاجأه خُسُوفٌ؟

وهل يكتمل عشقي فأقول له يا أنا؟

❀ ❀ ❀

حكاية مدينة الدباّبين وفيها ذكر صخرة الأحلام كذا بيت الأحزان وهي بداية حديث الدنو فانتبهْ

هل تعبتُ؟ نعم والله لقد تعبتُ وأنا أمرّ مَرّ الكرام على مدن لا تُغري بالدخول فأدخلها، ومدن أتلكأ فيها بحثًا وتنقيبًا علّ شيئًا يتكشفُ لي، مدن موحشة تبغضك فتبتعد عنها، وأخرى تهب نفسها لك من النظرة الأولى، إلاّ هذه المدينة، أبهى من كل المدن، ليس كمثلها مدينة مما رأيت، عمارتها غرائبية الطابع، بابها الكبير قوس قزح يبخُّ ألوان الطيف السبعة، على بابها لا يوجد حراس، حصاها من حجر اللازوَرد، أديمها مسك وزعفران، شُيِّدت كل قصورها من ذهب وفضة. هل حدثتني الأميرة عنها؟ فكأنّي جئت هنا من قبل، أعرف ما سوف أفعله، الخطوة القادمة وكيف أخطوها وإلامَ تُفضي بي، حديثًا سوف يدور بيني وبين ساكنة المدينة الوحيدة، تفاصيله أعرفها، تقدمت صوب قلب المدينة، لألئ الأحجار الكريمة التي تطؤها قدماي تكاد تُذهبُ بصري، جلوسي تحت ظل شجرة وارفة الظلال، نعس يُصيبني فلا أُفيقُ منه إلا بعد مدّة،

يغشاني ألم الجوع فأتلفّتُ حولي بحثًا عما يُقيمُ الأوَد وأجدها ثمرة تفاح ناضجة ملقاة بجانبي، أَهُمُّ بالتهامها فتأخذني رعدة لمّا ألمح آثار أسنان صغيرة مغروسة بها، تكوّن فكين صغيرين لفم أصغر سوف أعرفه وأعرف صاحبته، حول الأسنان كتابة. ليس هذا العضّ من عيبٍ بها.. إنما ذاك رسولُ للقبل. فياللطف مفتتحها لغزو كينونتي، ويالصبرها وتصبرها في انتظاري، أعرف أنها تنتظر التفاتتي إليها الآن، ألتفت فأجدها واقفة في شرفة قصرها العالي المواجه للشجرة التي أجلس تحتها، إشارتها لي بالدنو وتقدمي صوبها بلا عائق يعوقني، صعودي إليها ومثولي بين يديها، بهري بجمالها، شهقة المفاجأة، اندفاعي ناحيتها ولهفة احتوائها بين ذراعيّ، ترددي لحظة من ألا تكونها، أن تكون فقط تشبهها، تراجعي بعد عقد المقارنة، فيا سبحان الله، كأنهما توءم شيء وانقسم على نفسه فأنتجَ صنوه، لا يفرق بينهما إلا من عشق، آنَسْتُ لها وآنستْ لي، كأننا على ميعاد، وكأنها كانت تنتظر مجيئي، تعرفني منذ أمد، جلست بين يديها ساعة، لم أكفّ عن عقد المقارنة، ولم تكف عن التحديق في وجهي، كان الشبه تاما، الوجه المدور المختوم بطابع حسنه أسفل الذقن، البياض الذي يشفّ عما خلفه، ألمح مسرى دمائها، العينين الواسعتين بسوادهما الرائق، شعرها فاحم السواد المنطرح خلف ظهرها وافر الطول والدسامة، نعومته تكاد ترى، الجسد الفارع محكم البناء، أيهما أجمل: هذا الجسد ببنائه المتناغم، أم الوجه الذي يتوجُه بوسامته وقسامته وحسنه الفياض؟ كنتُ أنتظر مجيئك. قالت: وكأنها

تلقي بكلمة عابرة، وأخذتْ تساعدني في خلع ثيابي التي بدت لي مُتسخة بالية وأنا أيضًا كنت أعرف أني على موعد معك: هنا قلت وهي تسحبني من يدي ناحية الحمام، يدها فوق يدي، الأخرى تُحزّم خصري، وأنا منساق إليها كطفلٍ عثر على أُمّه فجأةً بعد غربة.

هل شعرتُ بخجل التعرّي أمامها؟ كَشفي عورتي ومكامني، اتّساخ جسدي، هل شعرتْ هي بذلك؟ هل نَدَّ عنها إحساس بالخجل لحظة، كسوفُ بنت بنوت من تَعَرِّي غريب أمامها؟ جلوسي بين يديها عاريًا في الحمام، انسياب الماء الساخن فوق بدني وهي تمرسه بأصابعها الحريرية بنعومة ورقة، إحساسي بنشوة المداعبة العفوية، استجابة جسدي لأصابعها، صعودي إلى ذرى من النشوة الخالصة، تدثيري بملاءة بعد انتهائها من تحميمي، تتقدّمني وهي تميس برهافة عصفور صغير، انتصابي فجأة وأنا أخترق ببصري أسوارها وحجبها، جلوسي على مائدة حفَلَت بلذيذ الطعام وأطيبه، إلقامها إياي اللقمة تلو الأخرى فكأنها تزُقني وقد انشغلتْ عن نفسها بي، جلوسي بجانبها بعد الانتهاء من الطعام ورأسي في حجرها فوق سرّ أسرارها وهي تداعب شعري. هل همست إليّ قبل أن يغلبني النوم؟ هل قالت: حمّلتك أمانة البحث عنها. وهل قالت: لقد تعبتَ يا صغيري وما حان راحتكَ بعد. وهل قالت: قُم يا حبيبي فالأرض تنتظر بذورك؟

❀ ❀ ❀

في وصف المدينة وسبب عمارتها وهلاكها

حدَّثتني فقالت: إن سبب إطلاق هذا الاسم على المدينة هو أن رجالها كانوا يدبّون بعضهم على البعض، كذلك كانت تفعل النساء أيضًا، وكانت لهم طرقٌ وحيلٌ في هذا الباب، حتى إنهم لم يروا زائرًا أو مارًّا بتجارته على المدينة إلا وتحايلوا عليه، حتى تفشّت الفاحشة في طول البلاد وعرضها وانقطع طريق التجارة، ولم يعد يقصدها أحَد، فكان ذلك سببًا لهلاك القوم وتدمير المدينة التي قيل إن مثلها لم يُخلَق من قبلُ.

وأما سبب عمارتها، فإن أحد الملوك الجبابرة، أراد أن يبني مدينة تكون عجيبةً بين العجائب يُفاخر بها سائر الأمم والملوك، فاختار أرضًا واسعة كثيرة الأنهار والغدران طيبة الهواء، وأمر المهندسين فخطُّوا مدينة مربعة الجوانب، محيطها أربعون فرسخًا، كل وجه عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء، وبنوه بحجارة الجذع اليماني حتى ظهر على

وجـه الأرض، ثـم بـنـوا فـوقـه بـلـبـنـات الـذهـب الأحـمـر سـورًا علوّهُ خمسمائة ذراع في عَرض عشرين ذراعًا، وكان الملك قد أرسل إلى جميع منابت الذهب في الدنيا لاستخراجه والبناء به، وقيل إنه استخرج الكنوز المدفونة في باطن الأرض من عهد آدم عليه السلام، ثم بنى في باطن المدينة ثلاثمائة وستين ألف قصر، في كل قصر ألف عمود من أنواع الزبرجد والياقوت المعقود بالذهب، طول كل عمود مائة ذراع، ومدّ على الأعمدة ألواح الذهب والفضة، وبنى على الألواح قصورًا من ذهب بداخلها في طرق المدينة أنهار من ذهب، وجعل حصاها اليواقيت، وجعل على شطوط تلك الأنهار أنواع النخيل والأشجار جذوعها من الذهب وأوراقها وثمارها من الزبرجد واللآلئ، وجعل للمدينة أربعة أبواب، كل باب ارتفاعه مائة ذراع وعرض عشرين ذراعًا، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة، كل منارة طولها خمسمائة ذراع، فلما فرغوا من بنايتها سيّر الملك إلى مشارق الأرض ومغاربها لجلب البُسُط والسُّتُور والفُرش من أنواع الحرير لتلك القصور، واتخذوا جميع أنواع الأواني والأطباق والقصاع والموائد والمنائر والسُّرُج والقدور من الذهب، كذلك جلبوا أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة والنُّقُل والحلوى والطيب والشموع والبخور مثل العود والعَنبر والكافور، فلما فرغوا من ذلك كله، اتخذَها الملك سَكنًا له ولخاصة أتباعه، وكان أبي من جملة أتباع هذا الملك، فقد كان وزيره، وعشت أنا وهو وحدنا داخل هذا القصر لأنه لم يُرزَق غيري

وقد تُوُفّيت والدتي، فلا يكَاد يفتحه إلا للذهاب إلى ديوان الملك، أما أنا فلا أخرج منه خوفًا على نفسي، وكان أبي رجلاً صالحًا لا يشارك الملك وخاصتّه في المجون والتبذل وتلك الآفة التي تسلّطتْ عليهم جميعًا، فكانوا يأتون بعضهم البعض في الطرقات والشوارعِ والبيوت، باختصار كانوا يفعلون الفاحشة في كل مكان في المدينة، وقد زيّن فقهاء مملكته هذا الأمر بإصدار الفتاوى وتأليف الكتب التي عَثرتُ على أحدها مطمورًا تحت أنقاض المدينة وهو في أدب الدبّ ونوادر أخباره ومُلَح أشعاره لمؤلف اشتهر بالفسق عُرف بابن الدبّاب، وقد أحرقتهُ حتى لا تقعَ عليه عينا مخلوق، وهذه الكتب كان منها الكثير لأن الملك أقام مسابقة سنوية باحتفال عظيم لمن يكتب أفضل عمل في هذا الباب.

وحدث في أحد الأيام أن سمعتُ جلَبَةً وحركة غير عادية خارج القصر، فخرجت إلى الشرفة لأنظر ما يجري، وكانت الملكة تمر في هذه اللحظة بموكبها، فلما اقتربت من القصر نظرتْ إلى فوق فرأتني أُطِلُّ من الشرفهِ أتفرّج توقفتْ لحظاتٍ وهي تتطلع إليّ وتسأل بعض الحرس عمن يكون صاحب هذا القصر، فلما علمت أنه لوزير الملك استأنفت سيرها وأنا جلست في انتظار أبي حتى يعود من الديوان، فلما جاء أحضرتُ الطعام فأكلنا وشربنا، وبينما نحن كذلك، إذا بطارق يطرق الباب فقام بنفسه ليفتحه، وكان أبي رافضًا لإقامة الخدم والحشم في قصرنا لعلمه بفساد الجميع، فلما فتح الباب وجد حرسًا ورسولاً من قبل الملكة

تدعوني لمقابلتها. فلما علم أبي بذلك اغتمّ غمًّا شديدًا وقال لي: هل رأتك الملكة اليوم؟ فقلت نعم. هزّ رأسه وضربَ كفًّا بكفٍ وهو يقول لا حول ولا قوة إلا بالله، فاعلمي يا بنتي أن الملكة أرسلَت تطلبك، وأنا لا آمَنُ عليك منها فهي فاجرة تفعل كذا وكذا، ولكن ما قدّر الله يكون ولابدّ من ذهابكَ فكوني على حَذَر. فلما ذهبتُ إلى مقابلتها، قادَني الحرس داخل القصر فلمحتني إحدى وصيفاتها فتقدمتني وأنا تَبعتُها حتى رأيتُ نفسي بين يديها. أخذت الملكة تتفرّس في ملامحي وتتأمّل جسدي وهي تعضُ على شفتيها وعيناها جحَظتا. ثم إنها أشارت لي بالجلوس بجانبها على الفراش فجلستُ، وفي أثناء حديثها أخذت تتحسسُ جسدي وقد كشفت لي عن نيّتها الخبيثة. ولم أدر ماذا أفعل فقلتُ أُطيلُ الحديث معها عسى أن يمدّني الله بالفَرَج من هذه الشدّة. وقلت لها: يا مولاتي ما أنا إلا جارية من جواريك، وعندك منهن من يفقننيُ حسنًا وجمالاً، فدعيني أرجع إلى أبي فليس له غيري.

قالت: هذا لابدّ منه. ثم إنها قامت عليّ وبَرَكَتَ فوقي وأنا أقاوم وأرفس بقدميّ الهواء وأخذ اليأس يدبُّ في نفسي فحانت مني التفاتة فلمحت سكينًا موضوعة بجانب طبق فاكهة بالقُرب من الفراش فاستجمعتُ قوتي ونَفَضتُها بعيدًا عني وبسرعة أخذت السكين ووضعتها على رقبتي وهتفت: الموت عندي أهون مما تطلبين. فلما آيَسَتْ مني تركتني أرجع إلى أبي وأنا لاأصدق بنجاتي منها.

لكن رجال الشرطة جاءوا في اليوم التالي وقبضوا على أبي بعد أن أوعزت الملكة لزوجها أننا نُدبّر له مكيدة، وأراد الملك إنزال أَشدّ العقاب بأبي فصُلِبَ في وسط المدينة وظلّ مُعلقًا مدة ثلاثة أيام تأكلُ منه جوارح الطير.

حدّثتني فقالت: لم يمر على وفاة أبي بضعة أيام قلائل حتى مرض الملك ومات، فأخذوا في تحنيطه لتبقى صورته ولا تتغير، كذلك كانوا يفعلون بموتاهم من الملوك وأرباب الحكم، فلما مات رأوا أن أمرهم قد فَسَدَ وتضعضعت أركان الدولة فضجُّوا بالبكاء، واغتنمها الشيطان فرصة فدخل في جثة الملك، وأخبرهم أنه لم يمت ولايمكن أن يموت أبدًا ولكنه تغيَّب عنهم حتى يرى صنيعهم من بعده. ففرحوا أشد الفرح، وأمر الشيطان، الذي يتكلم بلسان الملك، خاصة أن يضربوا له حجابًا بينه وبين الرعيه ليكلمهم من ورائه فوضعوه داخل صنم وضربوا عليه حجابًا، وأخبرهم أنه لا يأكل ولا يشرب ولا يموت وأنه لهم إله. فصدق كثير منهم ذلك ودخلوا في عبادته ففشا الكفر فيهم وازدادوا إفسادًا في الأرض، فبعث الله إليهم رجلاً صالحًا فأعلمهم أن الصنم لا روح له وأن الشيطان قد أضلّهم، وأن الملك لا يجوز أن يكون شريكًا لله تعالى، وأخذَ يعظُهم ويُحذرهم من نقمة الله وغضبه فقتلوه ومَثّلوا بُجثته. ولم يمهلهم الله عزَّ وجَل، فقد أصبحوا فإذا جميعهم قد أصيبوا بمرض خبيث لا دواء له، فصاروا يتساقطون كأوراق الشجر في الخريف وامتلأت الطرق بالجثث حتى فنوا كلهم، وأضحت المدينة خاوية على

عروشها لا يُسمع فيها إلا عزيفُ الجنّ والسباع الضارية. وكنتُ قد ادّخرتُ من الطعامِ والشراب ما يكفيني فأغلقت بابي على نفسي. وفي أحد الأيام، نَصَبتُ تحتَ الرمل، وكان أبي قد علمني كيفية قراءته، فعلمت أنك لابد أن تمر على مدينتنا في طريقك للبحث عنها، فأخذت أنتظر مجيئكَ، وهذه هي حكايتي من البداية حتى النهاية.

❀ ❀ ❀

كم من الوقت مضى منذ مجيئي إلى مدينتها، جلوسي في القصر أنا وهي، حديثها معي، توقي للقرب منها والتمسح بها، دُنُوي إليها كلما غدت أو راحت، تأمل جسدها الفياض المترع بالاسرار، إدماني النظر في بحر أنوثتها الطاغية المشعّة، مرتفعاتها وهضابها وسفوحها، أسوارها محكمة التشييد، انجذابي في محيطها ودوراني في فلكها غير المرئي. في حديثها ترياق من ألم الصبابة ومحنة الوجد المشبوب، صوتها وشيش بحرٍ يسكن ودَعَة، سكوتها وحشة ليلٍ أبديّ لا يُحتمَل، حدثتها عن أسمائها، وحدّثتني عن اسمي الذي تعرفه قبل رحيلي صوبها، عما أبحث عنه، عن مدن لم أرها بعد، وعن أناس ينتظرون مجيئي، وعن أراض دبّ فيها الفناء أحُطّ رَحْلي فتُزهر. قالت إن أول أسمائها يعني الأرض في اللغة القديمة، وإنه وجِدَ منقوشًا على تابوت من الذهب عثروا عليه أثناء عمارة المدينة، وحول الرسم دَائرة فيها عبارة: أنا كل ما كان، يكون، وسيكون، وما من بشر فانٍ رفع عني ردائي بعد. هذه العبارة

حفظتها، كانت تُردّدها بينها وبين نفسها، قالت إنها لم تفهم معناها حتى الآن، لكنها تُحسُّ أن لها معنى قدسيًا كلما رددتها. وقالت إن «عنقاء» هو اسمها المعلن الذي عُرِفَت به، هناك أسماء أخرى لا يعرفها سواها، وأنها سوف تعلم وليدها لمّا يأتي بجميع أسمائها وقالت إنها تعرف الشبه المطابق بينها وبين الأخرى، لذلك فهي لا تُخدَع من إدماني النظر إليها، علامات صبابتي ووجودي كلما نظرت في عينيها، فأنا أتشوف الأخرى فيها، وقالت إن عشقي على البعد لازمها، لكنها تعلم أنني لست رجلها، وأنني لا أدري إلى أي أرض يكون رحيلي، إن هي إلا محطات، فرحيلي دومًا صوب الأخرى، من أجلها أسيح سياحي، وإليها أقطع المسافات، تعجبتُ من مجالدتها على عشقي، تصبُّرها وعفافها رغم دُنُوّي منها ومُكثي بجانبها، محاولاتي بالقرب التي تقابلها بالابتعاد كلما هممت بمداعبتها، مزج رحيقي بشذاها، تقليبُ تربتها، تمثلت نقشَ اسمها إذ يقول: وما من بشرٍ فانٍ رفع عني ردائي بعد. هل كان نقشها يترصّدني، يومئ إليّ أن لا فائدة من الدنوّ، وأن وَصلي رهينٌ بالأخرى صاحبة المخطوط، فيها ولها وحدها وجدي ووجودي.

لبثت بالمدينة أيامًا لا أدري عددها، لا شيء أفعله، لحظة يصيبني ملل تصحبني عنقاء فنهيم في طرقات المدينة ودروبها الخربة، تشرح لي ما خفي من أمرها رأيت أشجارًا تطرح ثمارًا كالبشر ـ تقول عنقاء إن بعضها تطرح إناثًا، وأخرى تطرح ذكورًا. أما أشجار الأناث فثمارها إناث معلقات

من شعورهن، أحجامهن مثل أحجامنا، بجانبها أشجار الذكور، علامات الذكورة والأنوثة ظاهرة، كاملة الملامح والتفاصيل، يتكاثرون عن طريق الهواء، أهل المدينة كانوا يحبون هذه الثمار لحلاوة طعمهما، حكاية هذه الأشجار معروفة ومتداولة، وهي عن شاب وفتاة عشقا بعضهما البعض، عشقًا طاهرًا، كان عشقهما منزهًا عن أية أغراض، فقط تمنيا العيش بجانب بعضهما البعض هربا بعشقهما وسكنا هذه الأرض وتمنيا دوام عشقهما إلى الأبد، فتحوّلا إلى شجرتين متلازمتين هما أصل كل هذه الأشجار، في الليل تسمع أصوات نحيب آتية من هذه الثمار ومناجاة لا تنقطع. حدثتني عنقاء عن شجرة من ذهب وعليها طائر من الذهب أيضًا، وقالت إذا جاء أوان حصاد القمح صفّر ذلك الطائر صفيرًا عاليًا فتأتي إليه الطيور من كل أنحاء الدنيا، وكل طائر يحمل بين رجليه وفي منقاره سنبلة، فيجتمع لأهل المدينة من القمح ما يكفي لطعام سنة.

كانت عنقاء تأخذني في كل يوم لزيارة عجيبة من العجائب في مدينة الدبابين، أطلعتني علي نفائسها وكنوزها، ما كان ظاهرًا منها تحققته، أما الباقي فقد طمر، بأدمع أهلها، كأنه ما وجد من قبل، رأيت كل شيء حتى مللت فقررت الرحيل، فمازال بحثي قائمًا. أحسّت عنقاء بما أفكر فيه ففاجأتني: لن ترحل قبل أن تشاهد صخرة الأحلام، بعدها ارحل كما تشاء، لا محل لبقائك بعد زيارتها، وعندها سوف تجد الإجابة على سؤالك: لماذا جئت هنا أصلاً؟

❀ ❀ ❀

صخرة الأحلام

كنا نقترب من نهاية حدود المدينة عند ناحيتها الشرقية لمّا رأيناها، كتلة باهرة من الضوء اللامع تُوهجُ ما حولها بألوان قُزَحية، توقّفَت عنقاءُ فجأة، شدّتني من يدي حتى لا أتقَدم. قالت: لو تقدّمنا خطوة واحدة نحترق في الضوء كان من المفروض المجيء ليلاً، هكذا جرت العادة لمن يأتي هنا، أشعة الشمس المنعكسة تُلهب المكان، لا أحد يستطيع التقدم نحوها الآن، ولابّد من الانتظار. أخذتُ أُسرّح نظري فيما حولي، ما تبقّي من عمارة المدينة قليل، لكنه ينبئ بالفادحة التى نزلت، أخذت عنقاء يدي بين يديها، كانت تضغط عليها بشدة، بينما امتزج عرَق كفي بعرَقها، وبدت عيناها منديتين بدمع مُحتَبَس وهي تختلس النظر إلى وجهي، وشاهدنا الشمس تنحدر سريعًا لتسقط خلف التلال البعيدة، تقدمتني وأنا أتبعها حتى اقتربنا من الصخرة العملاقة الرابضة في مهابة، لم تكن صخرة كما بدت لي من بعيد، بل

هي جوهرة حقيقية، تعاشيق فصوص الزمرد والياقوت واللازورد تُرصع كتلتها المستحيلة وتضيء الظلام الذي أخذ يزحف علينا. تقول عنقاء إنها واحدة من أربع لا يوجد مثلهن شبيه، وأنهن من كنوز قوم عاد وقد تمّ اكتشافهن حين شرع الملك في بناء المدينة فأُقيمت عليهن الدعامات الأساسية لها، وأن لهن خصيصة واحدة، من غاب له غائب يذهب إليهن، يبيت ليلته ملامِسًا لهن فيرى في حلُمه من يبحث عنه، عندما بادت المدينة اختفت الجواهر الثلاث، ولم تبق إلا واحدة هي هذه. تقول عنقاء إن حجمها كان أكبر مما هي عليه الآن، وأن جزءًا كبيرًا منها ابتلعته الأرض وتركت فقط ما نراه أمامنا، وأنها سوف تختفي هي أيضًا وسوف أشهد اختفاءها وآخر من يراها.

جلسنا جنب الزهرة، اتكأ كل منا بظهره على السطح الأملس اللامع، اقتربت مني، كان لون وجهها الشاحب يشف عما بقلبها، طوقتها بذراعي فاستكانت على صدري، وتسللتْ نعومة ملمس جسدها وسخونته إلى جسدي فسَكَنَ إليها، كم من الوقت مضى في جلستنا هذه، لا شيء يؤنسنا سوى دقات قلبينا، تنهداتها بين وقت وآخر، سيل دمعها الدافق في صمت على صدري، نشيجها المكتوم، توتري وترصُّدي لما سوف يحدث وبينما نحن على هذه الحال غفونا، ورأيتها أمامي، ولوهلة ظننتها عنقاء ولكن مع دقة النظر وتغير أحوالي عرفت أنها هي الأميرة، كانت تُشير إليّ وتبكي، كانتِ قريبة مني

فأخذت تلتف حولي، مددت يدي لألمسها فابتعَدتْ فجأة، لَفّتْ حول نفسها في رقصة مُوَقّعَة، جسدها النوراني أخذ يتثنى بليونة ماء مندفق ومتماوج، أنثوية الروح، والجسد المضوي يُحيل الليل إلى بهاء سرمديّ من نور ونار وعطور فوّاحة البهجة وحدائق وأعناب وجنّة ليس كمثلها شيء. كان الجسد الأثيري يسرع من دفق دورانه، بل سريانه كريح صرصر لا يُرَى مركزها، في اللحظة التالية كان هناك انفجارٌ كونيٌّ، العينان أخذتا تصّاعدان، تُكونان أفقًا له زُرقة سماء تُخلَق للمرّة الأولى، رُمّانتا الصدر كاملتا النضوج تطيران ناحية الأفق لتستقرا كوكبين دريين تناثرت حولهما نجوم وشموس وأقمار كل في فلك يسبحون، الساقان الربلتان السامقتان تحوّلتا إلى فرعين صغيرين لمجرى نهرٍ عملاق نبعة المتفجر عند سرها المكنون، كنز كنوزها الذي لم يكشف بشرٌ فانٍ غطاءه بعدُ، الجسد الأرض ينبثق خضرة وزهورًا وفاكهة ونخلاً وحدائق غنّاء، كأنها السماوات والأرض لمّا كانتا رَتْقًا. هاأنذا أرى لحظة فَتقٍ أخرى، جليلة ومهيبة، ورأيت النقيض في اللحظة ذاتها، العدم يبتلع كل هذا الانبثاق الطفولي، ينتشر سريعًا ويأخذ في التهام كل شيء، ظلام حالك بلا هويّة، سديم هيولي لم أستطع النظر إليه، ورأيت شيئًا يتحرك داخل الحلكة، عمود من دخان أخذتْ كثافته تتضح وتشتدُّ، ظهوره موجة وراء أخرى، قوية ومباغتة، انتشاره في السماء مُكونًا كتلة غامضة لم تُفصحِ عن هويّتها بعد، لكنه الآن

أخذ يُكوِّن دائرة واضحة المعالم، كان حرف الميم مَرسومًا أمامي مالئًا الأفق، لا شيء غيره، حرفًا واحدًا متوحدًا بنفسه مكتفيًا بذاته، دائرته تشبه رحمًا عميقًا هائلاً، حيًّا ونابضًا. هل استقر لحظة قبل أن يلتهمه العدم فتساقطت منه قطرات تُبلّل وجهي، وهل صحوتُ من غفوتي وأنا أمسح على وجهي المبلل بالندى؟

كانت عنقاء نائمة ما زالت على صدري، أيقظتها برفق فاعتدلَتْ، وأخذت تمسح هي أيضًا وجهها. قلت لها: هل رأيت ما رأيته؟

قالت: لا لم أر رؤياك، فهذا سرُّك الخاص لا أحد يستطيع رؤيته غيركَ لأنكَ الوحيد الذي تفكر فيه. كانتَ الشمس لم تطلع بعد فهممنا بالمسير قبل ظهورها، وبينما أنا ألتفتُ ورائي، إذ رأيتُ الجوهرة وقد غاصَت في الأرض ولم يتبق منها سوى قمتها، وأبصرتُ مكتوبًا عليها حرفًا بارزًا وواضحًا لا لَبْس فيه، تمامًا كما رأيته، كان حرف الميم.

❋ ❋ ❋

ميم، الحرف الأول من اسمها الحامل ملامحها، رائحتها، مروجها المزهرة، أحمله الآن بين جوانحي، أنا الراحل دومًا صوبها، ماشيًا على صراطها في سكة الذي يروح ولا يرجع، فما من عاشق أخلص في عشقه إلا وسلَكها، كهذا يكون رحيلي صوب مَن حنّت ومَنّت بنتف من ملامحها على نساء الدنيا، مثلما رأيتُ عنقاء، وكما سوف أرى كل

مَن أقابلهن، لهن بعض صفاتها، فكأنها توزعَت فيهن أو أصابهن قَبَسٌ من روحها.

تذكَّرتُ عنقاء فكِدتُ أُجهشُ، لحظات وداعها لي، بكاؤها المرّ على صدري، جَهرها بسرّها المكنون منذ قدومي عليها، رؤياها التي رأتها عند صخرة، الأحلام. قالت: وجَدته مكتوبًا في طالعك وطالعي، هاأنذا أرى في حلمي عند الصخرة ما ظننت استحالته، كيف أحمل منك وألد دون أن تمسّني، دون أن ترفع عني ردائي، دون أن تثنَ عليكَ أحشائي فَيْروني فيضك، لقد استلقيتُ بجانبك فحط سيلُك في أرضي فأزهرتْ، ورأيتُ عندَ الصخرة ولدًا يخرج من رحمي هو منكَ ومني، وهو امتزاج فيضين دون ولوج.

ما أفضت به عنقاء وأنا أحمل عدّة رحيلي جعلني أُفكرُ بالنكوص، الاكتفاء بما مضى وأكُفُّ عن بحثي، السكن إليها، رؤية ولدي لمّا يولد، تأمّل ملامحه، رَصْدُ حبوه، وقوعه لحظة يخطو خطوته الأولى، سماعُ لثغ صُوته لمّا ينطق أوّلَ حرف، لكن عنقاء العارفة بالطوالع تُحدّث أنه سوف يكبر بعيدًا عن حجرى، وأنه سوف يبني مرة أخرى مدينة الدّبابين ويُعمرُها، يُسميها باسمي، وعَلى يديه تظهر كنوزها المدفونة، وهو الذي سوف يخوض مغامرته الكبرى في البحث عني في كل أنحاء الدنيا، فهل يجدني؟ تلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها.

مَن ذا الذي مَرّ من هنا قبلي، ومَن ذا الذي وقعت عيناه على ما أبصره الآن، ولا رفيق يُؤنس وحدتي أَتكئُ عليه حين يُصيبني تعبُ مُفاجئ، أسمع نَبْرَ صوته يُحدّثني حديثُ ودّ، نَهزم أنا وهو وحشة الصمت ونقتسمُ مخاطر الطريق، تذكَرتُ الخطوط، يُحدّث عن لحظاتِ حرجة سوف أمرُّ بها، عاصفة من قُنوطٍ تعصفُ بي:

لحظة يدلهمُّ بك الوقت، وحين ينتهي بك المطاف أن تصبح عند مفترق طرق، ولا تجد غيرك على ظهر دنياك، عندئذ، عليك أن تلوذَ بالخيال، دع حكايتك تقودها هناك، حيث العالم أكثر اتساعًا ورحابة، أكثر روعة وبهاء، بهذا وحده تهزم عدمك، وبه يكون حبل نجاتك.

❀ ❀ ❀

جبل الحكايات

كانت الشمس تنحدر ناحية الغرب وقرصها المستدير الدامي يصبغ الأفق بلون الغروب، بينما أنا أُوسّعُ من خطواتي مُجدًّا في مشيي حتى أشرفتُ على مكانٍ تحوطُهُ الجبال من كل ناحيةٍ، سلاسلَ من جبال سامقة في شموخ، كانت قممها غائصة في سماء رمادية، كأن هنا آخر حدود الدنيا، وبدا لي أنني لن أتقدم خطوة واحدة أبعد من ذلك، وأن خلف هذه الجبال لا يوجد شيء، فكدت أرجع مرة أخرى إلى حيث بدأت حين لمحته، طريقًا حلزونيًّا يلتفُّ حول الجبل متصاعدًا لا يكادُ يَبِين، يكفي لمرور شخص واحد على قدر حجمي، بدأت رحلة صعودي وكلما خطوت خطوة أجد شيئًا ما يشدني لأعلى حتى ظننت أنه أحد جبال المغناطيس التي قرأت عنها، لمّا اقتربتُ من منتصفه سمعتُ صوت قعقعة في الجو شديدة أضاءت الظلمة من حولي، ولمحتُ ما وقف له شَعرُ رأسي، إذ رأيت

عفريتًا واقفًا أمامي سادًّا الطريق، كان طويلاً كصاري مركب، عيناه تقدحَان شررًا، مدّ يده فأمسكني من وسطي فأخذت أرفص الهواء بقدميّ وقد أصابني الذهول مما أنا فيه، فلو أنه جلَدَ بي الأرض لاختلط بعض وانهدّ أساسي وفرعي، ثم إنه قَرّبني من وجهه فكدت أُفارق من خلقته، وابتدرني قائلاً بصوتٍ الرعد إذا قصف: ما الذي أتى بكَ إلى هنا أيها الإنسي، فقد سَعَيت إلى حَتفكَ بقدميك، اختر ميتَتَك بنفسكَ، فهذا لابد منه. أيقنت بنهايتي على أيدي هذا العفريت فنطقت الشهادتين وأغمضتُ عيني وصرت بين يديه كقَشةٍ في وجه الريح وأنا مُعلَّق من وسطي، ها.. لا تتركني أنتظر، هل اخترت بأي طريقة تحبّ أن تموت؟ أخذتُ أبكي وأرتعدُ ووقفتُ في طوله وعرضه أن يتركني، فلأي شيء تُريد موتي وأنا ما فعلتُ لكَ ما يُوجب قتلي. فنظر إليّ نظرة غيظ وقال: أنت لا تعرف كلمة السر حتى أتركك تمر، هذا هو جبل الحكايات، وأنا الحارسُ عليه، ولا أدع أحدًا يمرّ إلا إذا رمى عليّ كلمة السر. قلت: وكيف لي أن أعرفها؟ فأجابني قائلاً: فتّش عنها في نفسك فلابدّ أنك تعرفها وإلا لما جئت إلى هنا. ولمّا رآني سكتُّ ولم أعد أعرف بماذا أنطق أكمل قائلاً:

احك لي حكاية لا أعرفها فأهبك حياتكَ وأدعك تمر بسلام، وإذا لم تفعل ذلكَ أكلتُ لحمكَ قبل عظامك، وعليك أن تتذكر أنني عفريت حكايات، خُلِقتُ منها وأعيش فيها وأحفظ الكثير.

كيف أحكي حكاية وأنا هكذا معَلّقٌ من وسطي بين سماء ضبابية شاهقة، وأرض ما عدت أراها؟ وما الذي يمكن حكيُه لعفريت حكايات؟ فما أعرف، لابد أنه يحفظه هو أيضًا، لكن هناك شيئًا واحدًا لا يعرفه غيري، حكايتي أنا، سوف أحكي حكايتي مع المخطوط، ما جاء فيه، وما حدث لي منذ وقوعه في يدي حتى الآن، هكذا بدأت، وأخذ العفريت يُنصت لي، حتى انتهيتُ فنظر إليّ وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا، ثم إنه وضعني برفقٍ على الأرض وانفجر مقهقهًا فكأن الجبل كله يضحك: ها... ها... ها.... حكايتك جميلة يا إنسيّ، سوف أحكيها لأحفادي وعشيرتي ها.. ها... ها...، ثم رفّ بجناحيه وطار عاليًا حتى اختفى عني، تنفّستُ وبلعتُ ريقي وأنا لا أُصدق بنجاتي من يده وأخذت أُكمل طريقي صاعدًا جبل الحكايات، وكلما قطعت مسافة أرى أشياءَ عجيبة، فهذه أُمم من المرَدَة والجنّ والشياطين لا يُحصى عددُهم وهم بيض وصُفر وشُقر وبُلقٌ على صُورِ الخيل والبغال والسباع، ومنهم مَن كانت وجوههم في أقفيتهم، ومَن له رأسان، ومَن كانت رؤوسهم رؤوس ثعابين وحيات وأبدانهم أبدان فِيلَة، ورأيت كائنات على صورة الإنسان يتكلمون بلغة غير مفهومة ولهم أجنحة يطيرون بها، وأمة وجوههم كوجوه الكلاب وسائر بدنهم كبدن البشر، وأمة على صور الناس ولا توجد عظام في أرجلهم فيزحفون زحفًا فإذا وجدوا إنسانًا ماشيًا قفزوا على رقبته ولفُّوا أرجلهم حولها وسَخَّروه

لأعمالهم، وهؤلاء موطنهم الأصلي ألف ليلة وليلة، ومَن كان له رأسان وثماني أرجل، ونساء لهن شعور وأثداء يُلَقّحنَ من الريح ولهنَّ أصوات جميلة، وهؤلاء موطنهم سيرة الملك سيف، وأمة لا رأس لها وأفواه أفرادها وعيونهم على صدورهم، وخلائق لها نصف رأس ونصف بدن بيد ورجل واحدة كأنها إنسان قُدّ نصفين، وما من إنس أو جنّ أو وحش وطير جاء ذكره في حكايةٍ إلا ورأيته، ولهم بيوتٌ مُعلّقة في الهواء بُنِيَت من الأحرف والكلمات، وعلى كل بيتٍ يافطة كتب عليها اسم ساكن البيت وصفَتُه وموطنه الأصلي وزمن ولادته في الحكاية وأطوار نموّه المختلفة على مدار الأزمان، وأعجب ما رأيته هو ما سوف أقصه الآن، ففي عمق الجبل رأيت قطعة من الأرض الفضاء، ورجالاً ونساء وحيوانات مُنشغلين ببنائها، وخلف كل هؤلاء لمحت شيخ الجبل يُلقي عليهم بتعليماته، جريت عليه أحتضنه وأنا لا أصدق أنه مازال حيًّا وقد دفنته في التابوت بيديَّ، لكن جسده انسرب من بين يدي كالهواء، ووجدته يبتسم ويقول لي: لا تعجب فأنا في عالم غير عالمك، وهذه المدينة هي مدينتك، ولن تكتمل إلا باكتمال حكايتك، فلا شيء يضيع هنا. ثم إنه تركني وانشغل مرة ثانية بما يفعله. تركته ومضيت في طريقي حتى وصلت قمة الجبل، نظرت أسفلَ فرأيتُ بحرًا متلاطم الأمواج. هل تنتهي رحلتي هنا؟ هل لابدَّ لي من عبور هذا البحر الذي لا يُظهر شاطئيه لناظري؟ وكيف أعبره؟

جلست على قمة جبل الحكايات وقد أخذت الأسئلة تلحُّ على خاطري دون إجابة، بينما أنا كذلك إذ سمعتُ صوتها يقول لي:

يا حبيبي، لم يبقَ لكَ سوى خطوة واحدة فاخطُها
ولا تَخفْ، لن تسقطَ في اللُّجةِ إذا كان إيمانك بي
كاملاً فهيّا أقودُك إلى حيثُ تراني.

كان حديث الأميرة يَحثُّني على عبور البحر، فلا طريق أسلكها غيره، وكلما نظرت إلى اللُّجة المظلمة تحتي أتراجع خوفًا، فأي خطوة هذه التي أخطوها فلا يمسّني سوء، ولا أستطيع الرجوع من حيث أتيت فما عبر جبل الحكايات أحد، وعاد مرة أخرى إلى الحياة، وأهون عندي الموت غرقًا من تحولي شبحًا يسكن الجبل، وقفتُ وأخذت أقترب من حافة الجبل وأغمضت عيني وأنا أستحضر الأميرة في قلبي وخطوتُ. فتحتُ عينيّ فرأيتُ نفسي على الضفة الأخرى للبحر، حمدتُ ربي أني ما زالت حيًّا أسعى، وتقدّمت بضع خطواتٍ حين لمحتُ عن بُعدٍ عدّة أبنية متناثرة، شددت حيلي وأخذت أَجتهد حتى أصل إليها، بدت لي البيوت مهجورة وكأنها بنيت بالمصادفة، فلا تُوجدُ طرقات أو شوارع وميادين، لا سور يُسوّرها، فكل جهاتها مفتوحة، لم أجد أحدًا في طريقي فأخذتُ أتوغّلُ بينها، بيوتٌ طوابقها بُنيت على الأرض بلا سلالم، تدخلها من أي طابق فالأول مثل

الأخير، وبيوتٌ تنتهي فجأة في الفراغ دون اكتمال، وأخرى مائلة على جنبها كأنها تُوشكُ على سقوطٍ، وبيوت معلقة في فراغ فلا أحد يستطيع الوصول إليها، المواد المستخدمة في البناء مختلفة، بعضها بُني بالطوب اللَّبنِ، البعض الآخر بُني من معدن لامع، أما أشكالها فهرمية ورباعية وسداسية ومخروطية، على الطرف وبعيدًا عن كل البيوت رأيت حُوتًا رابضًا على الرمال عملاقًا ومهيبًا، ورأسه في اتجاه شروق الشمس، أما ذيله فلا يبلغ البصر مداه، زعانفه بدت كمراوحَ هوائية عملاقة، اقتربتُ بطيئًا حَذَرًا من مفاجأة قد تحدثُ حتى وصلت فرأيت على جانب السمكة من ناحية اليَمين بابًا عُلِّقت عليه يافطة كُتِبَ فوقها وبالخط الثُلث: هُنا بيتُ الأحزانِ، ومَن دَخَلَه فهو آمنٌ من فَرَحِ الزمانِ الزائِف.

❋ ❋ ❋

بيتُ الأحزان

دَفَعتُ الباب بيدي فانفتح، دخلتُ فواجهتني قاعة مستطيلة الشكل، أفضَتْ بي إلى ممرّ ضيقٍ طويل، مشيتُ مدّة ساعة وقد شملتني ظلمة، وأخذت أتحسّسُ الجدران اللزجة، وكلما قطعتُ مرحلة كان الممر يضيق حتى أصبح لا يتسعُ إلا لشخص واحدٍ يمر زحفًا على يديه وقدميه خائضًا في ماء آسن له رائحة نَتِنَة، ثم ألفيت نفسي في قاعة واسعة، كانت باتساع مدينة، طولها لا يحده نَظَر، عرضُها مثل ذلك، وشممتُ هواءً رطبًا وقد غشيني ضوء مُبهر مفاجئ، وواجهتني زحمة من رجال ونساء، أخذوا يتطلعون إليّ باندهاشةٍ بَدَت على ملامحهم، لكن سُرعانَ ما انصرفوا عني، أثار منظر الرجال والنساء عجبي، وجوه خلاسية كهلة، لا يوجد بينهم شاب واحد أو طفل. النساء مُتّشحات بالسواد، الشابات منهن تخطين الأربعين، أجسادهن ضامرة، لا أحد يتحدث مع الآخر، بل الجميع في صمت

تام، وقفتُ أنا أيضًا صامتًا لا أعرف إلى مَن أتحدث، وأخذت أتلفت حولى فلمحت شيخًا واقفًا منزويًا في أحد الأركان، ولابدّ أنه لمحني أيضًا، فقد أشار لي بالاقتراب فدنوت منه، هيبته ظاهرة بينما ملامحه تنبئ عن عمره كان أكبر من كل هؤلاء، وجهه الأبيض المدور تملؤه لحية طويلة، ذؤاباتها محدوفة على صدره، تكاد تُخفيه، وقفتُ أمامه وصار هو يتأملني، نظراته العميقة كانت تخترق حُجُبي، أصابتني رعدَةٌ، فهذا الوجه ليسَ غريبًا عنى، أينَ رأيتهُ من قبلُ؟ أشار لي بالجلوس، فجلَستُ، أما هو فقد أطرق ساعةً، ثم إنه رفع رأسه وتنهد قائلاً: أنتَ هو، نَنتظرُ مجيئكَ مُنذُ زمن. كأنه صوته آتٍ من جُبٍّ عميق له نبر حُلو أحببته، لم أُعبر له عن دهشي لسماع اسمي يُذكَر فى هذا المكان، ولم أجعله يعرف بما يدور في نفسي من أسئلة، بل أُطرقتُ أسمع حديثه بعد أن أحكمتُ غلقَ كل منافذي إلا من أُذُنٍ تَتنصت، حدّثني عن علاماتي الظاهرة، لذلك فقد عرفني، وعن عثوري على المخطوط، ظهور سيدة نساء العالمين لي، تكليفها لي بالبحث عنها، لَمُّ أشلاء اسمها من كل المدائن، رحيلي دومًا صوبها، حطي في مدن لم يطأها سواي، رؤيتي لشيخ الجبل وحديثي معه، مروري بمدينة الدّبابين، طفلي الذي أزفَ وقتُ مجيئه، رؤية الحرف الأول من اسم الأميرة تأكيدهُ على أن الحرف الثاني مدركه عما قريب، فما جئت هنا إلا لهذا السبب، دعاؤه لي بدنو المسافة واجتماع

الشمل، إطراقه مدّة ساعة بعد حديثه، سؤاله فجأة عن شيخ الجبل، تهدُّج صوته إذ يذكره، تذكّري أين رأيتُ هذا الوجه من قبل، الشبه التام بينهما، إلحاحه في طلب الحديث عنه، لحظاته الأخيرة كيف كانت؟ همساته لحظة احتضاره، ما أوصى به، كيف بدت ملامحه وهو يدنو من العدم، هل تألّم؟ هل أحسّ بوَحشة الفراق؟ حدّثتهُ بالتفصيل عن كل ما سأل عنه، اهتزّ جسده في نشيج مكتوم وأَشاح بوجهه عني حتى لا أرى دموعه. سألته: وهل تعرفه؟ تنهد ونظر أمامه متأملاً، قال إنه أخوه الأصغر. تذكّرتُ حديثًا دار بيني وبين شيخ الجبل عن أخويه التاجرين ومفارقته لهما فسألته: لك أخ آخر؟ قال: نعم. لكنني لا أعرف عنه شيئًا، ضعنا في المدن أنا وهما إلى الأبد، كنتُ أعرف نُتَفًا من أخبارهما إلى وقت قريب. ما إن أكمل الشيخ حديثه حتى بدأ يسعلُ سُعالاً متواصلاً وروحه تكاد تخرج من كل سَعلةٍ يهتزّ لها جسده، وأخذت أنفاسه تُسرع وهو يحاول أخذَ نفسه وقد جَحَظَت عيناه ورفع يده يقبض على الهواء بقبضته، ويده الأخرى أمسكَ بها رقبته. قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، وتلفتُّ حولي بحثًا عن نجدة، فكان الناس يمرون بجانبه ويرونه ولا أحد يهتم. إلى أن هدأ من تلقاء نفسه وذهبت النوبة فجلس صامتًا، وأخذت أنا أتلهى بالنظر فيما حولي. رأيتُ أكداسًا من الصُوَرَ مكّومة فوق بعضها، صفائح بوية وأصباغ مختلفة الألوان، وبينما أتساءل فيما يفعلون بتلك الصور

والأصباغ إذ سمعت صوت بوق مباغت أرعدني وأَرجَفَ فؤادي، فكأنه صوت صاحب الصور، وما أدري إلا والناس في هرج ومرج وهم يتركون ما بأيديهم ويتجمعون، حتى اصطفُّوا في مكان واحد كل فردٍ له نظيره الواقف أمامه، ومد كل منهم يده إلى الآخر وصاروا يتعاركون ويضرب بعضهم بعضًا ضربًا شديدًا حتى سالت دماء جميعهم، عند ذلك جلس كل في مكانه وكأن شيئا لم يكن، ولمحت الشيخ يقف وسطهم يفعل ما يفعلون، فمن أين أتى كل هؤلاء الشيوخ بهذه القوة على العراك؟ وعلام يفعلون ذلك؟

كانت الدماء تغمر الأرض والحوائط بينما الرجال قد انطرحوا على الأرض بلا حراك وجروحهم تنزف. قامت النسوة فأحضرن الماء وشرعن في تنظيف الأرض والحيطان وتضميد جروح الرجال. وحين أتممن ذلك جئن بصفائح البوية والأصباغ وأخذن فى طلاء وجوههن وملابسهن، فلمّا فرغن جمعن الصور وفرشنها على الأرض والتففن حولها يتطلعن إليها، كانت صورًا لشبان وأطفال. فجأة انبعث صوت إحداهن عاليًا بالصراخ فتبعتها بقية النساء، وأخذت امرأة ترفع صوتها وهى تُعدِّد بإيقاع رتيبٍ منتظم، الأخريات رَدّدن وراءها، ثم قفزن واقفاتٍ وهنّ يلطمن الخدود لطمًا سريعًا متلاحقًا، وأمسكت كل واحدة منهن بطرفي جلبابها فشقّته نصفين فما عاد يسترهن شيء، عند ذلك أخذن يتمالين ويلتففن

حول أنفسهن حتى تعبن فارتمين على الأرض فاقدات الوعي، فقام الرجال إليهن وفرشوا عليهن ملاءات فستروهن.

كان الشيخ يجلس على الأرض مبطوحًا، أشار لي فاتجهتُ ناحيته، جلستُ بجانبه، مدّ قدميه وارتكن بظهره على الجدار، تنهد وأغمض عينيه، هممتُ بالحديث فاعتدل ووضع إصبعه على شفتي فصمتُّ، وابتدأ هو الحديث فخرج صوته واهنا ضعيفًا ومهدودًا وكأنه آخر الأحاديث.

كانت فيما مضى مدينة عامرة من أكبر مدن الدنيا، أسواقها كانت شهيرة فهي محطّ للتجارة بين الشرق والغرب، موقعها جعل التجار يقصدونها، موانيها المطلة على البحر الكبير ازدحمت دومًا بالسفن العابرة. طرقها البرية مَن عبرها فهو آمن حتى يصل إلى مقصده، سُميت قديمًا مدينة الأبطال. أصل التسمية أنها قَدَّمَتْ على مدى تاريخها الموغل في القدم كل الأبطال الخرافيين، نبتوا فيها ونموا حتى اكتملت سيرهم، خرجوا منها تسبقهم أعمالهم وأسماؤهم تتردد في المعمورة، ففي كل جيل، وعلى رأس كل قرن كانوا يوجدون، مَن يجتمعون حوله ويُوحّد شملهم، يروون سيرته ويدونونها في كُتُب يتداولونها من جيل إلى جيل، يضيفون إليها عبر السنين. وحدث أن المدينة أصابها عُقم مفاجئ، جفّت ينابيع الخيال عند الناس، تغيرت أحوالهم، فقدوا الروح التي كانت تجمعهم، أساطيرهم التي هي مصدر

حياتهم، حكاياتهم وسير أبطالهم نسوها، لم يعد لهم ما يعيشون له أو عليه، وشيئًا فشيئًا بدأت ذاكرتهم تشيخ، أصابهم داء النسيان، وأخذ العدم يبتلع كل شيء. في غمار هذه المصيبة التي حلت، بدأت تنمو حركة سرية أخذت تنتشر في الخفاء تدعو الناس إلى إحياء حكاياتهم المنسية، تذكّر سير أبطالهم، تنمية الخيال وتنشيطه فقد ينجح في ابتكار أبطال جُدُد يعمرون المدينة من جديد. لم يكن زعيم الحركة معروفًا وقتها، مع مرور الوقت أخذت الحركة تشكل تيارًا عُرِفَ فيما بعد بتيار الإحياء، لقيت الجماعة اضطهادًا شديدًا على أيدي سلطات المدينة التي كانت تدعو الناس وتُحرّضهم على النسيان بوسائلها المختلفة، حتى إنها أعادت كتابة التاريخ بشكل آخر يختلف عما كان يعرفه الناس، وكوّنت حركة مناهضة لجماعة الإحياء وموالية للسلطة عرفت باسم جماعة «المحاجاة» أخذت تشككُ الناس في كل شيء، وقامت بإحراق كل الكتب المدون فيها تاريخ المدينة، وكانت جماعة المحاجاة تؤمن بالعنف فتمّ على يديها قتل عدد كبير من جماعة الإحياء، فخاف الزعيم على جماعته من فتك السلطات ومَن والاها، فدعا إلى بناءٍ كبير خارج المدينة وبعيدًا عن العمار، وبدأت حركة بحثٍ هائلة عن كل ما هو مدون وينتمي إلى أصل المدينة وتاريخها، بحثوا عن المعمرين والذين لم تُصبهم بعدُ آفةُ النسيان، يجلسون بين أيديهم يُدوّنون كل ما يسمعونه منهم، قاموا بحفظ ما سجلوه في خزانة

كبيرة وضعوا عليها حُراسًا يتناوبون حراستها ليلاً ونهارًا، اختفوا داخل البيت بعد خراب المدينة في الحرب التي قامت بين السلطة والناس. أطلقوا عليه «بيت الأحزان»، وهناكَ مَن يسميه «بيت الخيال»، يجلسون يتخيلون كل ما مرّ بهم في حياتهم، يُذكّرون بعضهم البعض، يتأمّلون الصور والمدوّنات. يبكون موتاهم، وظلّت كل خيالاتهم منصرفةً إلى الماضي الذي عاشوه أو سمعوا عنه، لكنهم أبدًا ما تخيّلوا ما هم فيه الآن عجزوا عن تخيل ما سوف يحدث، لقد أصابهم عقم هم أيضًا فما عادوا يعرفون كيف يُبدعون أبطالاً جُدُدًا وكانت تلك مصيبتهم الكبرى.

سكت الشيخ عن الكلام فجأة ومال رأسه على صدره وقد أغمض عينيه وبدأ شخيره يرتفع فأدركتُ أنه راح في النوم من كثرة التعب والإجهاد والنزيف الذي نزف منه أضعفه، تركته يستريح وقلت آخذ أنا أيضًا حظي من النوم، وما كدت أغفو قليلاً حتى صحوتُ على أصوات مُبهمة من حولي، كانت خليطًا من لُهاث وتأوهات وصُراخ هامس، وعلى الضوء الواهي الساقط من أركان القاعة، رأيتُ أجسادهم تتراقص كأشباح أخذت ترسم ظلالاً على الحائط. تذكّرتُ ما قاله الشيخ عن طقسهم اليومي، النساء يفعلن الأفاعيل من أجل ترغيب الرجال فيهن، أما الرجال فإنهم يُقبلون عليهن بلا حماس، العادة أفقدتهم الإحساس بلذة الوصل وعدم

جدوى ما يفعلونه، الإنهاك وصل مداه فارتمى الجميع على الأرض فاقدي الوعي عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، يقومون بذلك أمام بعضهم البعض، يقول الشيخ إن هناك فلسفة للجماعة تحكم أفعالهم، فالجنس غريزة مخلوقة في النفس الإنسانية، هدفها الأساسي تعمير الكون، تناسى الناس ذلك مع مرور الوقت، أصبح نُشدانهُ من أجل اللذة فقط، هم يحاولون إعادة إحياء هدفه الذي خُلِقَ له، فهو في الأصل تخيل امتدادك في آخر يأتي من صلبك، ذلك هدفهم الذي يعيشون من أجله الآن، فقد يحدث وتَعْلَقُ إحدى النساء بولدٍ يعيد مدينة الأبطال إلى سيرتها الأولى، وقد وضعوا كلِ ما يملكونه في حجرة أسموها بيت المال، رصدوها لمن تلد ولدًا حتى يُستعان به على عمارتها مرّة أخرى.

إقامتي بينهم زادتهم أُلفةً بي، حدّثتهم عن مهمتي، سياحي في أرض الله الواسعة بحثًا عن اسم الأميرة صاحبة المخطوط، كل منهم أبدى عطفًا، مودة خاصة، حُنوًا وإشفاقًا، النساء أخذن يتودّدن إليّ، كُن يطلن الجلوس من حولي والحديث معي وأنا أقص عليهن قصة الأميرة، عشقي لها علي الوصف، إقامتي في مدينة الدّبابين مع عنقاء، ولَدي الذي لن أشهد ولادته، كانت عيونهن تلمع ببريقٍ ما كنت أُدرك مصدره، لمّا أحكي حكاية عنقاء، يعضضن على شفاههن حتى تَدْمَى، يُبدين تأوّهات مكتومة، إلا إحداهن، كانت أجملهن، الشبه

الكبير بينها وبين عنقاء لا تخطئه العين، تُطيل النظر إليّ دون حديث، وكلما جئت بذكر ولَدي بدت على وجهها ابتسامة غامضة، لم تُفلح كل محاولاتي بالتقرب منها، الائتناس بالشبه بينها وعنقاء، تماثلهما في كل شيء إلا نأيها عني كلما اقتربت أو توجهت إليها بحديث، ألمحتُ للشيخ عن رغبتي في الانفراد بنفسي، في أن يكون لي مكاني الخاص، فأنا لا أدري هل ستطول إقامتي أم تقصرُ.

أبدى دهشة من طلبي، فهم ينشُدُون الجماعة، يخافون الوحدة ويحاربونها، أخذ يتشاور معهم فوافقوا، اقتطعوا جزءًا من القاعة وضعوا عليه سترًا وفراشًا أنام عليه. وفي الأيام الأولى لوجودي معهم كان طقسهم اليومي يتم بانتظام، ولكن جدّته أخذت تخفت حتى انقطع فجأة، زاد همسُهم حولي كلما رأوا الفتاة الشبيهة بعنقاء، وكانت هي تتجنّب لقائي، لم أشأ السؤال عنها حتى لا أثير ريبة، لكنهم كانوا يعلمون ما لم أكن أعلم، حدّثني الشيخ عنها دون أن أبدي رغبة في ذلك، هي الوحيدة التي ولدت في بيت الأحزان بعد رحيلهم عن المدينة مباشرة، لذا أطلقوا عليها اسمًا حمل كل صفاتها «حزينة» شبت وأينَعَت على الحزن وفي بيته، لم يرها أحدٌ تضحك ذات يوم، جمالها جعل الجميع يُحبونها، يتقربون منها، لحظة مجيئي حدّثتهم عن رؤيا رأتها، عن نُطفةٍ من خيالٍ تستقر الآن في أحشائها تُصبح ولدًا هو ابني وابنها، من صُنعِ خيالي وخيالها، على يديه ينهدم

بيت الأحزان ويُسميها من جديد، ويُوحّد مشارق الأرض ومغاربها، أما كيف يكون ذلك؟

فتلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها

❀ ❀ ❀

حين جاء الشيخ يدعوني إلى بيت المسرات، تيقّنتُ أن رحيلي موشك، لم يقل لي ذلك، لكني كنت أُحسّ بأن إقامتي في بيت الأحزان آن لها أن تنتهي، في الأيام الأخيرة حدّثتُ الناسَ عن إقامة بيت للمسرات، يتسرُّون فيه، فشرعوا في بنائه حتى انتهوا فأخذوا يقضون فيه أغلب أوقاتهم، لم يفكر أحدهم في إقامة مثل هذا الشيء من قبل، أعطوا لخلوتي اسمًا في الخفاء: بيتُ الخيال.

هل أحست «حزينة» بأمر رحيلي فجاءت لتُودعني؟ كانت المرّة الأولى التي تتودّد فيها إليّ، تقترب مني وتنفرد بي لم تتحدث، بل أخذَت كفي وضعتها على بطنها وهي تنظر في عيني، ثم تركتني ومضت دون أن تلتفت وراءها.

جلست بجانب الشيخ، بينما بدا بيت المسرات كخلية من النحل، والرجال والنساء يتحركون هنا وهناك، ثم أخذوا يتراصُّون في عدة دوائر. ولمحت بينهم «حزينة» كانت ترنو إليّ وقد تغرغرت عيناها بالحزن، بدءوا يرقصون رقصة تحكي عن أرض أصابها عطشٌ وجَدْبٌ إلى أن

جاء المطر فرواها وأزهَرَت، أخذت النسوة يرقصن رقصة المخاض، أجسادهن تلوتْ في ليونة ورشاقة، الدوائر تداخلت في بعضها البعض. بينما تسارعت أنفاس الجميع وعلا لهاثهم وهم يتشكّلون بمختلف الأشكال. ازدادت سرعة دورانهم حول أنفسهم فكأنهم يدورون في فلك دوامة هائلة، أبطئوا من سرعتهم قليلاً حتى توقّفوا فجأة، وقفت مَشدوهًا لما يحدُث أمامي، وشهقتي سمعها الجميع، فقد شكلَتْ أجسادهم، حرفًا استمرّ لحظة قبل أن يقعوا على الأرض، وفي اللحظة ذاتها، رأيت «حزينة» تخلع ثوبها فبدت عارية، كان جسدها يُضوي لامعًا نورانيًا، وفيما بين مساحة الصدر والتقاء الفخذين كانت هناك كتابة واضحة أعرفها:

ها أنتَ الآن يا حبيبي على مشارف لحظة هي
الأبد، دعِ هذا التجلّي يغمرُ قلبكَ للمرة الأخيرة،
فما شاهد ذلكَ قبلكَ غيركَ، كما لن يراه بعدكَ
غيركَ، فأنت سيدُ كلّ شيءٍ الآن، وأنا أُعطيكَ
كتابي فخذهُ بقُوةٍ، لا تضيّعْهُ مرةً أُخرى، فإن ضاعَ
كما ضاع قَبْلاً، فقُل على الدُّنيا السلام.

هل كانَ هَذا هو المخطوط، الذي فقدتُهُ؟ أخذتُ أُبحلق في الكلمات المحفورة أمامي على البطن الذي بدا تكوره واضحًا، كانت السطور

تتبدّل الآن على صفحة الجسد الأبيض كلما أخذَت صاحبتي نفسًا ورَدّته، وها هو المخطوط يعرض كله، ما قرأته قبل ذلك وما لم أقرأه بعد، وإذا السكون من حولي تام البوح، فلا بشر، لا وحش، ولا طير، فقط أنا وحدي سيدُ الأشياء كلها، وأحسستُ بها تنبثقُ مني، كان وجهها يتلألأ نورًا وبهاءً وفرحًا، وكانت كأجمل ما تكون وهي تومئ لي فاردة ذراعيها، وسمعتُ همسًا يتردّد في قلبي:

هَلُم إليّ يا سيدَ نفسي لأَضُمّكَ إلى صدري، فقد أَمَضني الشوقُ، آنَ لغُربتك أن تنتهي بعدَ خُطوةٍ أخيرة تخطوها، وآنَ للعاشقِ المُجد الأَوْب إلى معشوقهِ ليكتمل به، آنَ لي أن أهمِسَ لكَ: يا أنا.

❀ ❀ ❀

المحتويات